إلى الوراء دُر

قصص

سولاف هلال

الكتاب: إلى الوراء دُر (قصص)

الكاتبة: سولاف هلال

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

هلال ، سولاف

إلي الوراء در (قصص) / سولاف هلال

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٥ – ٤٤٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١١٦٥٢/ ٢٠١٧

إلى الوراء دُر





الإهداء

إلى أستاذي العزيز

الأديب نواف أبو الهيجاء.. الحاضر الغائب

المشهد الأخير

مرارا وتكرارا تتبدل الوجوه أمام ناظري صاحب الكشك الذي يقع على ناصية شارعٍ عمومي من شوارعٍ بغداد المحاصرة بالموت من كل جانب..

زبائنه عابرو سبيل ليس إلا، يدفعهم العطش أحيانا لشرب زجاجة بارد أو عصير معلب ، ويحثهم الإحساس بالقهر لحرق لفائف تبغ يبتاعونها منه لينفثوا من خلالها دخان نفوسهم التي تغلي كبراكين تنتظر لحظة الإعلان عن غضبها المتصاعد.

وقد يشترون صحيفة تبيع لهم الوهم بهيئة أمل في اجتياز المحنة التي يعاني منها الوطن والمواطنون ، رغم أن بلادهم لا تزال ترزح تحت أقدام المحتلين والمارقين والخارجين عن القانون والأعراف والدين.

لم تعد الحياة كما هو عهدها في السابق ، فالمدينة أضحت مرتعا للشر والأشرار ، أما أبناؤها فانقسموا بين قاتل وقتيل ، لاشيء يدعو للتفاؤل وليس هنالك أمل لشعب حلم بالحرية فأغرقته الوعود في بحر من الدماء.

لقد حظي في الماضي بصداقات شتى امتدت لأعوام، أيام كان للصداقة معنى وقداسة ، لكن أين هم أصدقاؤه الآن ؟ منهم من طالته يد الغدر ففارق الحياة ، ومنهم من آثر الرحيل أملا في النجاة من الموت الذي حط رحاله في هذه البلاد.

الآن صار من المستحيل تذكر وجه واحد من الوجوه التي تطالعه كل يوم.

فالكل مصاب بالذعر، لا يلبث أن يطلب حاجته على عجل خوفا من انفجار عبوة ناسفة هنا أو هناك أو خشية أن تصيبه طلقة قناص عابث لايعرف أين يسدد فوهة بندقيته.

منذ يومين شيع جاره جثمان زوجته وهو في حالة ذهول جعلت الجميع يرثي لحاله ، فلقد تركت له أربعة أبناء لا يعرف كيف سيدبر أمرهم في وقت عصيب كهذا.

كانت تجلس إلى جواره في المقعد الأمامي من السيارة وهي في حالة حبور، ثم سكتت ضحكاتها على نحو مفاجئ، ومال رأسها حتى لامس ذراعه، لم يتنبه إلى ما أصابها في بادئ الأمر، حتى صعقته المفاجأة حين أسند رأسها على صدره وهو يحاول أن يعيد إليها وعيها المفقود، كان رأسها ينزف دما إثر إصابتها برصاصة قناص لا أحد يدري إلى أية ميليشيا ينتمي أو كيف يحدد أهدافه.

هكذا أضحت الحياة في بلد ظل يحلم بالسلام لكن السلام لم يحلم به أبدا، فمنذ عشرات السنين، والحروب تنجب حروبا فوق أرضه حتى صار في النهاية نهبا للغزاة، وغدت شوارعه ساحات إعدام للأبرياء.

أشرق وجه صاحب الكشك حين أقبل عليه شاب في العشرين سائلا إياه عن مجلة عربية تعنى بالفن والفنانين.

ألقى الرجل نظرة متفحصة على أغلفة بعض المجلات ثم ناوله إحداها وهو يتفرس في وجهه الذي بدا له مألوفا منذ الوهلة الأولى.

انهمك الشاب في تقليب صفحات المجلة، وبين الحين والآخر يمسح الشارع بنظرات متحفزة سرعان ما تعود لتسقط على وجه الرجل الستيني، فيحييه بابتسامة ناعمة بدت له كنسمة هواء باردة في ظهيرة يوم قائظ، فجميع الوجوه تمر أمامه متجهمة تحمل طابع الأسى والنقمة على الحياة.

استأنس الرجل بالشاب فقرر أن يهزم الصمت الذي بات يثقل ساعاته:

– أنت من سكان هذه المنطقة؟

– ليس بالضبط، لكن بيتي قريب.

- لم تسبق لي رؤيتك من قبل، لكنك دخلت قلبي وحق الله، ما اسمك؟

- سيف

- وأنا يدعونني أبو غايب

- هل لديك ابن مسافر أو مفقود؟

- لا يا ولدي.. فلقد تعود الناس أن يطلقوا على الرجل الذي لا ينجب كنية أبو غايب.

- معذرة يا عمي لم أكن أعلم ذلك.

- هل ستأتي إلى هنا ثانية؟

- لا أظن.

- ولم لا.. ألم تقل إن بيتك قريب؟

- ليتني أستطيع..

- وما الذي يمنعك من المجيء؟

تجاهل الشاب سؤاله وتشاغل بقراءة عناوين بعض الجرائد لكن الرجل استأنف الحديث:

- ما رأيك بما يحدث الآن؟ أرأيت كيف يموت المرء على يد ابن جلدته؟

– لا تنس أننا محتلون، وثمة أيد خفية تلعب لعبة قذرة وتثير الضغينة في النفوس.

– نفوس الضعفاء يا ولدي.. أليس كذلك؟

– بلى.

– متى ستنزاح هذه الغمة؟

– قريبا إن شاء الله.. بهمة الرجال.

– أنت طالب؟

– أنا طالب في الجامعة المستنصرية، ليس هذا وحسب فأنا أكتب القصص والروايات صحيح أنها لم تر النور، لكنني سعيد بما أكتب، أحيانا أمثل ما أكتبه أمام الأهل وبعض الأصدقاء المقربين.

– لماذا لا تصبح ممثلا، مادمت تمتلك القدرة على التمثيل، أنت وسيم ولديك حضور، سأكون أول المعجبين.

– أشكرك على ثقتك بي، لكني لست مستعدا للإقدام على خطوة كهذه فالبلد في حالة فوضى واضطراب، لكنني سأعرض لك مشهدا بعد قليل، هذا المشهد كتبته بنفسي ولنفسي، أتمنى أن تستمتع بأدائي.

– هيا إذاً.. ماذا تنتظر؟

– كل شيء بأوان يا عمي.. ناولني أولا زجاجة بارد.

بدا الرجل متشوقا لرؤية المشهد الذي سيعرض أمامه بعد قليل، بينما كان الشاب أكثر شوقا لأداء الدور الذي أنفق وقتا في إعداده، وعندما فرغ من شرب زجاجة البارد ركض صوب آلية عسكرية لجنود الاحتلال، وبكبسة زر من حزامه الناسف انطلقت روحه لتعانق الشهداء.

كان صاحب الكشك قد انبطح أرضا في حركة لا إرادية، مغمضا عينيه على وجه ذلك الشاب الذي فاجأته براعته في أداء ذلك المشهد البطولي المهيب.

ولدتْ مرتين

لست أدري لماذا أتضاءل إزاءها إلى هذا الحد؟ لماذا أفقد هيبتي وأتحول إلى طفل عابث ما إن تأزف ساعة حسابه حتى يلوذ بحضن أمه هربا من العقاب؟

أشعر أحيانا أنني لم أغادر طفولتي، برغم أنني أوشكت على الستين، ولماذا أغادرها، ما دام هنالك ذراعان مفتوحتان وحضن يؤويني؟

كثيرا ما أجدني مهزوما مخذولا، إذا ما اتخذتْ موقفا محايدا، تاركة إياي في مجابهة أي مصير، حتى لو كان هذا المصير هو مواجهة عنيفة مع زوجتي

ما من أحد يعرفني كما تعرفني هي – بمن فيهم زوجتي – لذلك أشعر بأنني عار.. عار تماما أمامها، إذا ما ارتكبت فعلا أو حماقة ما.

حاولت مرارا أن أبني لنفسي كيانا شامخا، عوضا عن ذلك الكيان المتهالك الذي يهوي حالما أفكر في توجيه تحذير إليها أو لوم ، فتمحقني نظراتها حتى أصير محض لا شيئ.

ليس ثمة ما يجعلني أقيم معادلة تحدد علاقتي بها، فإحساسي بأمومتها يطغى على كل ما هو دونه، نادرا ما أشعر أنني متذبذب، لكن سرعان ما يتلاشى هذا الشعور إزاء نظرة رؤوم من عينيها النديتين، وكثيرا ما أشعر بالزهو والفخر حينما تقول :

– تعرف يا ولد يا حسين.. أنت أجمل وأغلى ما خرجت به من هذه الدنيا، لكنني – وبرغم سعادتي – أحتج وأردد في قرارة نفسي:

– لكني لست ابنها

ثم أعود لأقول:

– إذا لم أكن كذلك، فلماذا هذا الخنوع الذي أشعر به حيالها؟

الصلة بين الأشخاص وما يترتب عليها من سلوك، تقتضيه عوامل ثابتة ومحددة، أما هذا الشعور المزدوج الذي يتعدى حدود المألوف، فإنني أقف أمامه عاجزا، فثمة خيط لا محسوس يخترقني وإياها، لا يدركه أحد سوانا.

أضمحل أحيانا وأتلاشى إزاء نظرات الدهشة التي ألمحها في عيون ولدي، فالانقسام الذاتي والتناقض المحسوس، يضعانني موضع تحليل ودراسة لكل منهما، وغالبا ما أجدني متحفزا للهرب بينما يتأهبان للانقضاض عليَّ بأسئلتهما:

– لماذا هذه التفرقة.. ألسنا جميعا أولادك؟! تعاملنا بحزم وصرامة، وتقسو علينا أحيانا، بينما تلين لها وترضخ، ولكأنك ابنها وليست هي!

وحيث لا سبيل إلا الصمت، أغيب عائدا إلى سنوات خلت، أطرق أبوابها فتفتح ولا يدخلها أحد سواي.. كنت مصابا بعرق النسا، وكان الألم يشدني إلى المقعد.. فاجأ زوجتي ذات ليلة المخاض فحملها جيراننا الطيبون إلى المستشفى دوني.

شعرت بالعجز، لكن فرحتي باستقبال مولودي الأول خففت من وطأة ذلك الشعور المضني.. ألقيت بجسدي على الأرض.. جرجرته بعناء.. سحبت جهاز الهاتف.. وضعته في متناول يدي، ثم رحت أنتظر البشرى.

لست أدري لماذا – وفي تلك اللحظة بالتحديد – امتدت يدي لتطلب رقم والدتي في مصر،كنت أعمل حينها في إحدى دول الخليج.

لم تدهشني كلماتها، لأنني لم أدرك معناها إلا بعد حين.

– ولدي الحبيب.. أعرف أنك حرمت مني كثيرا، وبعدت عني كثيرا، من أجل هذا سأكون معك بعد ساعات من الآن، لأني سوف

أولد من جديد، سوف تضع زوجتك مولودة أنثى، وسيغادرك الألم حالما تولد؟؟

لم أفكر بما قالته والدتي، لأن قلقي على زوجتي طغى على أي تفكير.

عند الفجر أخبرتني زوجتي بأنها وضعت مولودتها بسلام، وأنها بحاجة إلي، ثم قالت بإشفاق:

– أعرف أن الحركة عسيرة عليك، لكن لابد من حضورك.

– لا تحملي هما.. لقد تحركت.

زايلني الألم تماما منذ تلك الليلة، ولم يعاودني إلى الآن، لقد صدق حدس والدتي.

عرفت فيما بعد أن أمي غادرت الحياة بعد أن وضعت سماعة التليفون.

استقبلت المولودة بفرح بالغ، ثم استقبلت مولودا آخر بعد سنتين، وما أن أنهت هويدا عامها الرابع، وأتم محمود عامه الثاني، حتى قررت العودة إلى مصر، لم يكن نزار قد ولد بعد .

أقمنا في بيت العائلة، وهويدا لا تنفك تردد، أن هذا هو بيتها الحقيقي، وأنها لن تغادره بعد الآن، لأنها لا تجد الراحة في مكان سواه.

دعاني أخي الذي يقيم في الفيوم لزيارة قبر أمي، ذهبنا جميعا، فحدث ما لم أتوقعه على الإطلاق.

كان علينا أن نجتاز طرقا متعرجة للوصول إلى القبر، وقفنا ننتظر أخي فهو دليلنا إليه وفيما كنا ننتظر، انفلتت هويدا من يدي، ثم راحت تجري في اتجاه ما.. لحقنا بها لاهثين، فوجدناها تقف عند قبر أمي بالتحديد، كيف عرفت المكان؟.. لست أدري..

أخبرني أخي أنه ما استطاع الوصول يوما إلى القبر إلا بعد أن يلف ويدور عدة دورات لأنه في كل مرة يضل الطريق إليه.

وتمر الأيام والسنون، وأكتشف يوما بعد يوم، أن الذي تعرفه هويدا عني وعن عائلتي يفوق ما أعرفه أنا.

لا أذكر أنها نادتني بكلمة "بابا" إلا في السنوات الأولى من عمرها.

أحتار كثيرا في أمر هذه البنت، فعلى الرغم من أنها تشبه أمي ظاهريا وجوهريا، إلا أنها سلكت في حياتها مسلكا آخر، فهي فنانة تعزف على آلة الفلوت ببراعة، تتحدى أساتذتها وتتواضع لزملائها رغم تفوقها عليهم.

كل شيء فيها يثير دهشتي، هذه الابنة الأم، والأم الابنة، أستعذب أحيانا ذلك الشعور المتناقض الذي أكنه لها، لأنه شعور نادر لا يتمتع به أحد سواي.

أخبرتني زوجتي يوما، أنها تصاب بالذهول كلما أصغت لحديث هويدا عن تاريخ العائلة، وتندهش حين تسهب في تحليل شخصية كل فرد من أفرادها، فتتساءل:

– من أين تحصل على هذه المعلومات، وما هي مصادرها؟

لم يحدث أن طرح هذا الموضوع بشكل أو بآخر على مسامع أفراد أسرتي، لأنني لم أسمح بذلك، فأنا الوحيد الذي يعرف سر الحكاية، لكنني بالتأكيد لست الوحيد الذي صار ابنا مرتين.

لصوص من نوع آخر

الليل فارس ملفع بالعتمة والصمت والانتظار، وهو هارب لائذ بجنح هذا الفارس.

نفسه كتلة من حزن، وأفكاره حلقات مسننة لا تنفك تضغط على رأسه المثقل بالهموم فتأتي على ما تبقى لديه من صبر واحتمال.

سنواته الماضية محض سراب وأيامه القادمة كابوس مفزع فهو يجهل ما سيؤول إليه حاله في الغد أو بعد غد.

سنوات الحرب والجوع التهمت كل ما يملك وتركته كيانا متآكلا بلا مأوى تطارده لعنة الماضي والحاضر معا.

بالأمس افتعل مشكلة ليبيت في أحضان أحد السجون، فلقد سئم وجوه أصدقائه التي تنطوي على ضيق كلما حل مساء جديد، والليلة يتملكه شعور بالعجز، باللا جدوي فما من وسيلة تنقذ بقاياه الهزيلة من هذا الضياع.

منذ أوائل الليل وهو في سباق مع الزمن، فثمة هاجس يدفعه ليجوب شوارع بغداد المحببة إلى نفسه، إنه يسابق الليل، فمن منهما سيرحل أولا؟

اخترق شارع الرشيد، عرَّج على شارع المتنبي، عند ناصيته توقف مادا بصره إلى أبعد نقطة هناك، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يتذكر كلمات بيتين شعريين من إحدى قصائد المتنبى ..

وكلما لقي الدينار صاحبه ... في ملكه افترقا من قبل يصطحبا

مال كأن غراب البين يرقبه ... فكلما قيل هذا مجتد نعبا

استأنف المسير رغم التعب الذي حل في جسده، لم يتوقف لحظة عن السير أو التفكير.

إستعرض حياته.. حياته كلها، إنها تاريخ حافل بالحروب، هل أبقت تلك الحروب على شيئ؟ هل هنالك أمل في أن يستعيد إنسان هذه الأرض أمنه واستقراره؟ هو لا يدري، لكنه يعرف تماما بأن العشرات من الضحايا يتربصون بالموت، علهم يجدون فيه الراحة بعد عذاب.

تبددت العتمة المهيمنة على المكان الذي يحتويه بعد أن اخترقها شعاع أفقده القدرة على الرؤية، تابع السير دون أن يلتفت صوب السيارة التي توقفت على مقربة منه.

أحس بخطوات تلاحقه.. ارتاب.. تلكأ، لعل الأمر يعنيه، وفي حركة مباغتة انقض عليه رجلان أدخلاه السيارة عنوة.

لم يكن هنالك ما يدعو إلى العنف، فهو لم يقاوم، وظل مطرقا، فليس لديه ما يخشى عليه، لأنه لم يجن من هذه الدنيا إلا الهباء، ولا يملك فيها سوى ثيابه التي يرتديها، لقد باع كل شيئ، باع أثاث بيته، كتبه، أدوات مطبخه، حتى ثيابه باعها من أجل لقمة عيش لا تسمن ولا تغني من جوع.

سيارة فخمة وثلاثة رجال، لا أحد بإمكانه أن يخمن أي نوع من الرجال هم، حتى هو لم يشغل نفسه في التفكير في نواياهم، أو من يكونون، وما لبث أن نام بعد أن سرى مفعول المخدر في جسده المكدود.

في الصباح كان الفارس الملفع بالعتمة والصمت والانتظار قد ولى هاربا من جحافل النهار، فيما لاذ الهارب بالراحة الأبدية.

ماذا تبقى له من حطام دنياه غير هذا الجسد المنهك وها قد سرق هو الآخر، حيث ألقى به الرجال في أحد الأماكن النائية بعد أن سرقوا كليتيه.

لا بأس.. فها هو قد وصل إلى غايته، لكنه رحل دون أن يعلم بأنه مازال يملك ما يسرق وأن الحروب قد أفرزت لصوصا من نوع آخر.

أحبها بجنون

كنت أكذب أحيانا وأدعي المرض أحيانا أخرى، لا لشيء سوى أن أستدر عطف أمي.

كثيرا ما عانيت من إحساس لم أدرك مغزاه في تلك المرحلة المبكرة من عمري.

كنت في العاشرة وتسلسلي بين إخوتي يقع ما قبل الأخير، ربما حظيت بمحبة الجميع، لكن ليس بالقدر الذي ناله أخي الأصغر، كونه آخر العنقود.

من المؤكد أن كثرة عددنا قد أرهقت أمي ووضعتها في حرج، ذلك لأن إقامة موازنة عادلة ترضي الجميع شيئ صعب وربما مستحيل، كما أن توزيع الوقت على عشر أبناء من كلا الجنسين أمر ليس بالهين أو اليسير.

مازالت صورتها محفورة في ذاكرتي، تلك المرأة الطيبة المتفانية، لم تكن حياتها على مدار الساعة سوى عمل دءوب، حتى في الليل، وحين يخلد الجميع إلى النوم، أسمع صوت احتكاك الفرشاة بأرضية البيت.

أتسلل.. أختبئ.. أرقبها دون أن تراني، فأجدها تعمل بنشاط، ولا ترقد قبل أن تترك البيت في أبهى صورة، يستعد لاستقبال يوم جديد.

في تلك الفترة من عمري، وفي الأعوام التي سبقتها، كنت شديدة الولع بها، حتى أنني كنت أمقت المدرسة، لأن الساعات التي أقضيها هناك تحول بيني وبينها.

لذلك وضعت جل اهتمامي في كيفية استقطابها نحوي، ونيل القسط الأكبر من الحب والدفء والحنان، فادعيت المرض، وبتكرار ادعاءاتي، صرت أشعر بآلام حقيقية حتى صدقت نفسي، وكثيرا ما شعرت بوخز الضمير، وأنا أراها تلهث متنقلة بين معامل التحليلات ومراكز الأشعة، لكن رغبتي في الاستحواذ عليها تبرر لي أفعالي، فأعرض عن التفكير في أي شيء دون تلك الرغبة الجامحة في امتلاك هذه المرأة التي تمثل لي العالم بأسره.

بطلت ادعاءاتي حين اطلع الطبيب على الأشعة والتقارير، فرحت أمي لسلامتي من الأمراض التي كنت أدعيها، ولا أدري إن كانت قد اكتشفت أكاذيبي أم أنها لم تسئ الظن بي من الأساس، أما أنا فقد شعرت بالهزيمة، ثم رحت أبتكر طرقا جديدة، ولم أترفع عن القيام ببعض الأفعال الصغيرة لألفت الانتباه.

فتارة أترك العلكة في فمي أثناء النوم، دافعة نصفها إلى الخارج، وأخرى أعض على السندويتش الليلي، ثم أغمض عيني، حين ألمح قدومها، ولشد ما أشعر بالابتهاج حين أسمعها تشهق مرددة "بسم الله الرحمن الرحيم"، وهي تنتزع من فمي العلكة أو السندويتش، فأنام لأحلم بفكرة جديدة.

صحوت ذات صباح على همسات تدور بين إخوتي، شعرت بنظراتهم تلسعني، قال لي أحدهم وهو يرمقني بنظرة ساخرة:

– ألا تخجلين مما تفعلين؟

– ماذا فعلت؟

– تسيرين وأنت نائمة.. تتحدثين بكلمات غير مفهومة، أول أمس كنت تتأبطين نعليك والبارحة تحملين الوسادة فوق رأسك، لقد صرت أضحوكة، فكفي عما تفعلين

لم أعلق على شيئ، ورحت ألجأ إلى النوم متحاشية بذلك عيون إخوتي المتسائلة المستنكرة.

وفي ليلة من ليالي الصيف، صعدت إلى سطح الدار في حدود الساعة الثامنة مساء.. مددت بصري إلى الأسطح المجاورة، حيث الأسرة البيضاء والأغطية الملونة، ثم تسللت إلى فراشي، كان باردا

يغري بالنوم، تطلعت إلى الفضاء الرحب ورحت أفكر في وسيلة أستعيد بها لهفة أمي من جديد.

بعد مرور ساعات نزلت إليهم.. دخلت إلى غرفة المعيشة، كانت الأسرة تجتمع بجميع أفرادها تتابع مادة السهرة التي يعرضها التليفزيون.

قلت بتعجب:

– أنتم هنا.. حسبتكم تبحثون عني؟!

التفت الجميع نحوي، قال أخي الأكبر:

– نبحث عنك؟ أين كنت؟!

– هناك.

– هناك أين؟.. تكلمي..

– في الخرابة

– أية خرابة؟

– تلك التي تقع لصق بيتنا.. أعني ذلك البيت الذي انهار منذ عامين إثر عاصفة عنيفة.

تبادل الجميع النظرات والابتسامات.. شعرت بالحرج جاءني صوت أمي دافئا:

– ألم تكوني نائمة؟

– بلى.. لكنني سقطت في ذلك البيت.

ثم رحت أسرد الحكاية:

كنت نائمة بالفعل، لكنني فزعت حين ارتطم جسدي بالأرض، يبدو أنني تسلقت الجدار وأنا نائمة فسقطت.

كان الظلام يهيمن على المكان وقطع الزجاج تفترش الأرض، حتى أنني شعرت بشظاياه تنغرز في جلدي.

نهضت.. بحثت عن مخرج، لكن باب البيت كان موصدا، لم أصرخ.. لم أخف، ذلك لأني كنت مدركة تماما أين أنا، ثم رحت أبحث عن وسيلة تعيدني إلى بيتي.

أجلت النظر في أرجاء المكان، ثمة غرفة تقع لصق بيتنا ظلت صامدة.. بحثت عن سلم يوصلني إلى سطحها، لكنني لم أجد سوى جذع نخلة يتكئ على الجدار، تسلقته بمشقة، ثم اعتليت الجدار الذي أوصلني إلى سطح دارنا بسلام.

وما أن أنهيت كلامي، حتى انفجر الجميع بالضحك، صاحت أمي، فصمت الكل، وصمتت هي أيضا، ثم بدد الصمت صوت أحد إخوتي:

– إنها تكذب يا أمي.. فهل من المعقول أن تسقط من ذلك الارتفاع دون أن تتحطم عظامها؟ ألم تلاحظي كيف دخلت علينا، إنها أحسن حالا مني.

أيده الجميع فانفجرت بالبكاء، قلت موجهة كلامي لأمي:

– أنا لا أكذب هذه المرة، صدقيني.

اصطحبتني إلى إحدى الغرف.. أغلقت الباب فهويت على الأرض، لقد خشيت أن تضربني، لكنها مدت لي يدها الحانية، ثم قالت بصوت عطوف:

– انهضي ولا تخشي شيئا.

رفعت جلبابي، كان الدم قد تجمد على سطح جلدي دون أن أشعر به، صرختْ، فتوافد الجميع، قالت وهي تبكي:

– إنها لا تكذب.. لقد سقطت بالفعل، هذه الجروح تؤكد ذلك.. ضمدت أمي جراحي، وصرت لا أنام إلا في أحضانها، لكنها لم تكتف بذلك، بل راحت تفكر في طريقة تقيد حركتي ليلا، فاهتدت

إلى وسيلة جعلت قلبي يزغرد فرحاً كل مساء، لقد أخذت تربط قدمها بقدمي أثناء النوم.

فكان ذلك الرباط المادي الذي جعلني ألتحم بها كل ليلة هو الرباط الروحي الذي كثيرا ما حلمت به.

بسمة على شفة ماء

قلقة كنت ومضطربة، بضع ساعات تحول بيني وبينه، هجرني النوم، بل أنا التي هجرته، إنها رحلة إلى السعادة.

اقتحم حياتي عبر مكالمة خاطئة تكررت عشرات المرات.. شدني صوته، كان مميزا يحمل نبرة غليظة تنم عن رجولة مفرطة.

داعب روحي بشفافية روحه.. دغدغ مشاعري وأوقد منصهرا للجليد الذي يكتنفها.. أحال عالمي الهادئ إلى عالم صاخب لا يشبه ذلك الذي اعتدته.. فحياتي قبله فراغ، كل ما فيها سراب، لا أذكر منها سوى تجربة فاشلة لم أكن مسؤولة عنها، هي الوصمة التي ستبقى لصيقة بي ما حييت.

أحببته بصدق، توجت بحبه أنوثتي المطعونة بيد وحش آدمي اقترنت به رغما عني وعشت معه ثلاثة أعوام، هي أسوأ سنوات عمري.

كان شبقا، مهذارا، أرعن، لا تحد رغباته حدود، هجرته وأنا الصغيرة ذات الأعوام الثمانية عشر دون أن آسف على شيئ.

أرهقتني الساعات، وما أشد وطأتها على من ينتظر إشراقة أمل.. كنت أعد الوقت بدقائقه وثوانيه يملؤني الشوق للحظة اللقاء.

جالت في خاطري مشاعر جميلة.. أغمضت عيني.. حاولت أن أرسم له صورة من محض الخيال، لكنني لم أفلح، فكل الصور تأتيني دون ملامح. شدني الحنين إليه.. رفعت سماعة الهاتف.. أعدتها، ثم وثبت نحو المرآة، ووقفت أرنو إلى جسدي في انبهار لكأنني أراه للمرة الأولى، أعجبتني تفاصيله فارتسمت على وجهي ابتسامة الرضى.

فتحت خزانة ثيابي.. أخرجت محتوياتها.. بذلت جهدا في انتقاء ما سأرتديه.. تغلغلت أصابعي بين خصلات شعري الداكنة، تساءلت :

– هل أقيده أم أتركه منسدلا على كتفي في استرخاء؟

وفجأة هاجمتني هواجس مفزعة اغتالت الطمأنينة في نفسي وتركتني فريسة للظنون..

اتصلت به على الفور، لأضع حدا لتلك الهواجس المقيتة..

كان مستيقظاً هو الآخر، لعله قلق مثلي، من يدري؟..

بنبرة مرتعشة قلت له:

– أنا قلقة..

– لم القلق؟

– قد لا أعجبك.

– للمرة الألف أقولها لك.. أنا عاشق للروح وعدا ذلك لا تهمني أية تفاصيل.

شعرت بالارتياح.. فتحت النافذة لأستنشق نسائم الربيع.. الفجر يرتدي ثوبه الرمادي بتؤدة، وثمة غيوم تتراكض هنا وهناك.

شعرت بالخدر يدب في جسدي ، فأمسكت بتلابيب النوم.

في الصباح وجدتني أكثر تفاؤلا وحبا للحياة.. ارتديت ملابسي على عجل، لكنني لم أغفل أدق التفاصيل.

وصلت إلى المكان المحدد قبل الموعد بقليل، كنت حريصة على أن أراه قبل أن يراني.

وقفت في مكان قصي ثم رحت أرصد الشارع بعينين متحفزتين.

كانت السماء حينها تنزل رذاذا أشعرني بالنشوة، مرقت أمامي عشرات الوجوه، تعبت من شدة التحديق، وفجأة شعرت بالخجل

والاضطراب، خيل إلي أن هنالك عيونا تترصدني وشفاها تهمس، وأصابع تشير نحوي، كدت أهرب لولا أنه حضر في الوقت المناسب، عرفته من ملابسه.. تسمرت في مكاني مصعوقة بالدهشة.. جرجرت خطواتي بتثاقل، عبرت الشارع، ثم وقفت على الرصيف الأوسط أرنو إليه.

كان وسيما، أشقر الملامح، يقف مزهوا بسنواته العشرين، يجوس الشارع باحثا عن فتاة الحلم، وفجأة ركض في إثر فتاة.

بينما رحت أنا أجري عملية حسابية، كان ناتجها ستة عشر عاما، هي الفرق بين عمري وعمره.

عالم بلا عيون

لأ أكاد أصدق، لا يمكنني التصديق، فكيف يتسنى لرجل يلتقيني للمرة الأولى أن يكتشف ما لم أكتشفه في نفسي طوال حياتي؟!

إنه لمساء مراوغ، ماكر، ذلك الذي خرجت فيه من عزلتي التي فرضتها على نفسي.

لم أرفض هذه المرة.. لم أتردد، إنه حفل صغير تقيمه إحدى الزميلات بمناسبة عيد ميلاد ابنتها..

قبلت علي الفور لسبب أجهله، رغم أني اشترطت على نفسي عدم فتح ثغرة أمام الآخرين تمكنهم من الولوج إلى عالمي.. عالمي الذي صنعته لنفسي، بمنطقي الخاص، وفق برنامج أعددته وطبقته على مدار أعوام مضت.

قبل الذهاب إلى هناك، منحت نفسي فرصة للتراجع، للتفكير في عواقب الخطوة التي أقدم عليها بجرأة، فالخروج عن المألوف ليس بالأمر اليسير، ثم إنني لم أطرق باب أحد منذ أمد طويل، في أعماقي يقين مطلق بأن شيئا ما سوف يحدث عقب هذه الدعوة.

عند الباب وقفت.. زاغت عيناي، فثمة أضواء تتلألأ، موسيقى صاخبة، أشرطة ملونة تزين الجدران، أطفال بملابس الفرح يمرحون، يا الله.. هذا العالم سأكون جزءا منه بعد قليل، لم أعتد هذه الأجواء، لكنني سأحاول الاندماج..

مررت بالضيوف.. سلمت عليهم جميعا.. جاء دوره، إنه الرجل الذي قلب حياتي رأسا على عقب.

قالت زميلتي وهي تقدمه لي:

– أستاذ مصطفى، مترجم.

يا لهذا المترجم، كيف استطاع أن يترجمني؟ أن يغوص في أعماقي. أن يفهم الأسرار التي انطوت عليها نفسي؟ كيف؟ كيف؟..

كل شئ على ما يرام، الفرح يعلو الوجوه، الموسيقى انسابت بنعومة تدعو إلى التأمل، الأطفال تعبوا من الرقص فاستكانوا، خيم على المكان شيئ من الهدوء.

أطباق الحلوى منحت الحاضرين طاقة غير اعتيادية فتوهجت الجلسة، سادها الحماس، دارت أحاديث جادة في السياسة، الاقتصاد، الحرب، العنف، الفقر، الغلاء.. تقاطعت الأصوات بين مؤيد ومعارض..

أصغيت.. استنفرت قدراتي على المتابعة والاستيعاب، وقفت على الحياد وكأن الأمر لا يعنيني، مر بعض الوقت لم تلتقط أذني خلاله أية كلمة..

كنت أستعيد بعض المشاهد التي رأيتها على شاشة التليفزيون، يا لها من بشاعة، قتل، عنف، دمار، ألا يدفعك هذا أن تغلق العالم دونك..

ثمة كلمات اخترقت سمعي.. استفزت مكنوناتي.. استفزتني، وعلى غير ما أتوقع أمسكت بدفة الحديث، ثم رحت أتكلم دون تحفظ عن عالم غيبي غير مرئي لكأنني جزء منه.

تطرق أحد الضيوف إلى حادثة نشرت تفاصيلها إحدى المجلات، مفادها أن قوى خفية أحرقت بيتا في إحدى القرى النائية.

سألته بتوتر:

– أتعني أن الجن هو المسؤول عن تدمير ذلك المنزل..

لم أعطه فرصة للنفي أو التأكيد.

– هل رأيت جنيا يقتل إنسانا أو يسرقه، يشعل النيران أو يشن الحروب؟

وحده الإنسان هو المسؤول عن تلك المصائب.. فهمت؟

– أنا لم أقل شيئا، المجلة هي التي قالت، ثم إنني لا أؤمن بوجود الجن..

– لم لا تؤمن؟ ها؟ أنت بذلك تنفي حقيقة مؤكدة، الجن يعيش معنا جنبا إلى جنب، والجميع يعلم ذلك..

– تتكلمين عن الجن وكأنك تعرفين ما لا نعرفه نحن!

– إذا كنتم لا تعرفون فهذا شأنكم، أما أنا فأعرف الكثير، إنه كائن مسالم، لا يثير السخط أو الاشمئزاز كما يفعل بنو البشر.

– وماذا أيضا؟

– أنا شخصيا أفضله على سائر الناس، يكفي أنني لا أخشاه ولا أتوقع منه طعنة في الظهر.

بدا الأستاذ مصطفى متربصا، ثم تدخل فجأة:

– أنت تزعمين وجود الجن، أعطيني دليلاً على وجوده..

– أنا لا أزعم، بل أؤكد، ذلك لأنني أعيش معهم، أسمع أصواتهم.. أرصد تحركاتهم.. إنهم يكنون لي كل الحب، وأنا أيضا، إنهم ظرفاء، يرفهون عني.. يداعبونني يملأون حياتي.

أحيانا أرى الأشياء تتطاير في فضاء البيت ثم تعود إلى أماكنها من جديد، وتتغير مواقع الأثاث أحيانا أخرى دون تدخل مني، فأنا أحب التغيير وهم يعلمون ذلك..

آه.. أقول لك شيئا قد يدهشك، عند عودتي من عملي أسارع بغلق الباب وكأنني مطاردة، لأنني أعلم أن الخطر يأتي من الخارج.. من الإنسان لا من المخلوقات التي أعيش معها..

– أريد تفسيرا منطقيا لكل ما تدعين.

– عدم وجود تفسيرات لحالة ما لا يعني نفيها.

– هذا كلام غير مستساغ، كما إنه لا يعتمد على منطق.

– ماذا تريد أن تقول؟

– أنت تعانين من اضطراب نفسي، أنصحك بمراجعة طبيب..

– أرجوك.. أنا طبيعية جدا..

– لا أظن ذلك.

الذاكرة قذفت محتوياتها ما إن ألقى حجره في مائها الراكد، ما الذي حدث؟ لماذا أقلب صفحات ذاكرتي الآن؟ وقد تعاملت معها على أنها صندوق للنفايات، عن أي شئ أبحث في أوراقها الصفراء؟ أية حلول لأي عقد أريد؟

في أعماقي ألغاز أعجز عن الوصول إليها بمفردي، ليس بإمكاني أن أستسلم للانقلاب الذي اجتاح عالمي، أياد خفية تحاول تمزيق الهدوء الذي يلفني، لابد أن أستعيد توازني، لابد أن أستعين بطبيب.

استلقيت باسترخاء، هو الذي طلب مني ذلك.

– مما تعانين؟

– أنا لا أعاني شيئا، فأنا طبيعية جدا، لكنهم يظنون عكس ذلك.

– ماذا يظنون؟

– جئتك لأعرف.

– كم عمرك ؟

– أتممت الأربعين.

– متزوجة ؟

– نعم.

– أين زوجك؟ هل هو في الخارج؟

– إنه هنا في الغرفة.

- لكنني لا أرى أحدا سوانا..

- هذا أمر طبيعي، لا أحد غيري يمكنه ذلك.

- آه.. فهمت.

- ماذا فهمت؟

- لاشيئ، سوف نستأنف الحديث في الجلسة القادمة.

تعددت الجلسات.. تلاشي عالمي شيئا فشيئا.. فقدت إحساسي به، كنت أعيش وهما جميلا حتى جاء ذلك المصطفى ليشتت الوهم.. ليشتتني.. ليزج بي إلى عالم لا أجد نفسي فيه.. إلى عالم أمقته..

في الجلسة قبل الأخيرة، كنت في السابعة من عمري، وثمة كلمة تتردد على سمعي وإخوتي، حين يتعذر على أبي السيطرة على تصرفاتنا، في الليل خاصة، يلجأ إلى تخويفنا، "إذا لم تنم فسوف يأتيك الحرامي ليقطع لسانك بأظافره ويسلبك كل أشيائك"

صار للخوف ملامح "فالحرامي" كائن غير مرئي، لكنه عندما يظهر فسوف تكون له مخالب سوداء وملامح مرعبة، هكذا تخيلته..

كنا نلعب وكان الفرح يغمرنا، فجأة تحول الفرح إلى كابوس مفزع حين جاء أحد الأطفال ليخبرنا بأن الشرطة قبضت عليّ "الحرامي" الذي حاول سرقة أحد البيوت.

انتابني الفزع، فكيف سأرى ذلك الكائن القبيح هكذا وجها إلى وجه.. وهل سأسلم من شره؟

ركض الأطفال وركضت معهم، اتجهنا إلى سيارة الشرطة التي كانت تقله.. اختبأت وراء الأجساد.. مددت رأسي بحذر.. رأيته. يا إلهي.. إنه بشر مثلنا.. إنه بشر.. بشر!

لم أنس ذلك المشهد أبدا، لقد أفقدني الثقة بأصدقائي وبإخوتي أيضا.

– حسنا، في الثامنة من عمرك أو التاسعة؟ ماذا حدث؟ تذكري جيدا.

–كنت أجمع ثمار التوت المتناثرة على أرض الحديقة، كان الوقت ظهرا والشارع خال إلا من بعض المارة، تناهت إلى سمعي نداءات استغاثة، اعتليت الجدار على الفور، ثمة فتاة شابة تركض فزعة، يتبعها والدها حاملا بيده شيئا لم أتبينه في بادئ الأمر، وما أن أصبح علي بعد مناسب منها حتى أطلق النار عليها فسقطت قتيلة.

لم يفر وإنما وقف بشموخ رافعا رأسه وهو يردد "غسلت عاري بيدي".. سال دم الفتاة على أسفلت الشارع، سالت دموعي حزنا عليها، أما والدها فقد ذهب إلى السجن دون أن يهمه ذلك.

قبل أن تسأل أيها الطبيب، أود أن أقول لك بأن حياتي مليئة بحوادث أفظع مما ذكرته لك، ولا أريد أن أتذكرها الآن، الإنسان وحده هو المسؤول عن الخراب الذي حل في نفسي، كان لابد أن أبتعد عن عالمه الدامي، لأصنع لنفسي عالما مسالما لا قتل فيه، لا حروب، لا مجازر، لا دمار.

-أرجوك اهدئي، أنت الآن في طريقك إلى الشفاء، فلقد عرفنا الأسباب التي أدت إلى انعزالك عن الناس وخلقك عالما وهميا لا وجود له إلا في خيالاتك، الإنسان ليس سيئا إلى هذا الحد، والحياة رغم مساوئها مازالت تدعو إلى التفاؤل، ثم إن ..

غادرت العيادة بنية اللاعودة.. خرجت إلى الشارع، كان مزدحما، آلات التنبيه تصم الآذان، وثمة معارك صغيرة تدور هنا وهناك، ألفاظ نابية.. صرخات هستيرية تؤذي السمع والروح معا.

وقفت أرقب المارة، إنهم يحدثون أنفسهم لكنهم طبيعيون في نظر الناس، يا لهم من أشقياء.

لقد انضممت رغما عني إلى عالمهم الغريب بعد أن فقدت عالمي الجميل الساحر، لكنني ومنذ ذلك اليوم صرت أدرك تماما أنني لم أعد طبيعية.

تحت سقف واطئ

وقفت كما هو دأبها كل صباح عند النافذة المطلة على هيكل هرم لبيت مهجور، وفي أعماقها رجاء أن يحتويها ذلك البناء العاري وأولادها الثلاثة.

تأملت البيت طويلا، كل شيء فيه مألوف لديها، فمنذ ثلاثة أشهر وهي تقيم معه علاقة من نوع خاص، فتارة تبني جدارا وأخرى ترفع سورا شامخا، يساعدها في ذلك خيالها اللامحدود.

غمرها حزن مفاجئ، فالشتاء على الأبواب، ومكوثها في الزاوية القصية لحديقة المنزل الذي تعمل فيه لم يعد مجديا، لابد أن تتخذ قرارا حاسما بشأن انتقالها إلى ذلك البيت، بعد أن تأكدت أن أرضه لم تطأها قدم مالك أو من ينوب عنه منذ سنوات.

طافت عيناها تجوسان في جوف المخدع المغطى بقطع الصفيح المتشقق.. شعرت بالأسى، قالت بصوت أسيان:

– ليس من العدل أن أبقى مع أولادي في هذا الجحر الذي لايصلح إلا للجرذان.. لابد من سقف وجدران.. لا أطمع في أكثر من هذا.

في الليل كانت قطرات المطر الخريفية المتقافزة بإيقاع متناغم فوق سطح السقف المعدني قد فجَّرت في داخلها شعورا امتزجت فيه المتعة بمرارة واقعها الكئيب.

امتد بصرها مخترقا العتمة.. أجالت النظر بين زوايا البيت، إنه موحش تغلفه العتمة ويلفه الصمت.. ازدادت الدقات فوق السطح.. تسارعت نبضات قلبها، ثمة صور ارتدت من ماض ليس ببعيد.. عواء كلب شق السكون إلى أسماعها.. صوت بدران جاءها صارخاً:

– إخل البيت في الحال.

– لكنني لا أملك مكانا آخر.

– هذا أمر لا يعنيني، المحكمة تلزمك بإخلاء الدار فورا.

– أين سأذهب بأولادي؟

– اذهبوا إلى الجحيم.

إيه بدران ما أقساك، أي شيطان هذا الذي يثوي في داخلك، كرشك النهم المتدلي سوف لا يتوقف عند حد، ما ضرك لو رحمتني، هل أنت بحاجة إلى تلك الزيادة التي أثقلت كاهلي، فرميت بي إلى الشارع؟ لن أغفر لك.

كان صباحاً كئيباً ذلك الذي اهتزت الأرض فيه تحت قدميها.. جدران البيت تنهار إزاء صخب البلدوزر الشرس، مخالب الوحش انغرزت في الثنايا واقتلعت جذور الأمل.

هرعت إلى البيت.. صرخت.. استغاثت، لكن أحدا لم يسمعها، جاء صوتها واهنا وسط صخب الآلة المفترسة.

لم ينتبه اليها أحد، كانت هي في شأن والآخرون في شأن آخر، وفي غمرة انفعالاتها سقط بصرها على رجل معاف تبدو عليه سيماء الغنى، تنفرج شفتاه عن ابتسامة غامضة:

– هلا أمرتهم أن يتوقفوا؟

– يتوقفوا عن ماذا؟

– يتوقفوا عن هدم البيت، إنه أملي الوحيد، لا يحق لهم فعل ذلك.

– لكنه بيتي.

– أنت تكذب.. صاحب البيت مات منذ سنوات.

– أنا حفيده.

– وأنا بحاجة إلى مأوى

نظـر الرجـل إليهـا بتعجـب.. رفـع كتفيـه تعبيـرا عـن عـدم الاكتراث.. دس في يدها ورقة نقدية ثم استدار مبتعداً.

صرخت بعد أن ذاب في صمتها الذهول.. رددت الجدران المتهاوية صدى صيحاتها:

– أنا لست متسولة.. أنا.. ل.. س.. م.. ت..

فيما راح يشمخ في العراء حلم بناية جديدة ذات طوابق عشرة لرجل متخم!!!

أرض الأحلام

استيقظ الحلم.. صار حقيقة، فهي في عاصمة الفن.. صانعة النجوم.. حلم المبدعين، يا لها من نشوة حين تحلق الآمال بصاحبها، أطلقت لصوتها العنان.. تمايلت طربا.. هتفت بأعلى صوتها:

"ها أنذا بين يديك أيتها الساحرة، فارفعيني لأستحم بنور الشمس، لست أقل ممن اعتلوا هامتك ودقوا عليها الأوتاد، احمليني واقذفي بي إلى المجد"

أن تحلم شيئ، وأن تحقق الحلم شيئ آخر، فهنالك عشرات الأبواب الموصدة، ومفاتيح تلك الأبواب لا تملكها هي، بل يملكها آخرون.

بلغت الأحلام مداها حين التفت إليها قائلا:

– أنت جميلة أتوقع لك النجاح

ثم أسهب في الحديث عن معارفه في هذا المجال، وأكد أنه كفيل بأن يجعل منها نجمة في مدة لا تتجاوز الشهر، وحتى يثبت لها أنه رجل عملي، اتصل على الفور بمدير أحد المسارح وحدد موعدا للقاء..

– إنه مسرح ممتاز، بعد أيام ستتصدر صورتك واجهته، وستعرفين حينها أنني وعدت ونفذت..

– لكنني غير متحمسة.

– لماذا؟

– اسم المسرح لا يروق لي.

– وما شأنك باسمه؟

– أتخيل أنه سيحلق بي حالما أبدأ الغناء.. أليس اسمه المنطاد؟

– اسمه البالون.

– وما الفرق؟.. هذا يطير وذلك أيضا

– دعينا نتحدث عما هو أهم.. علينا أن نتفق..

– نتفق! على ماذا؟

– أريدك لي.

– ماذا تعني؟

– أنت تفهمين مقصدي فلا تراوغيني.

– أنت وقح.

– وأنت مثيرة.

– أنا لست غانية.

– إن لم تكوني لي فسوف تكونين لغيري.

– سحقا لك ولغيرك.

عادة ما تكون الصدمة الأولى أشد وقعا من التي تليها، فهل ستصمد أم ماذا؟

جحظت عيناه ما إن رآها، سألها:

– ماذا تغنين؟

– أجيد غناء القصائد والموشحات، والأدوار كذلك.. إمكاناتي الصوتية تبرز في مقامات الراست والنهاوند والبياتي.

– عظيم، أنت واثقة من نفسك.

– أكيد فأنا أعرف إمكاناتي.

– تمهلي.. فالجمهور الآن لا يهتم بالطرب، ألا تلاحظين أن معظم الألحان التي تحدث فرقعة هي من مقام الكورد، وهي ألحان خفيفة وسريعة "تيك أواي" كما يسمونها.

– "تيك أواي"؟

– اسمعي يا آنستي، نحن نعيش الآن زمنا مختلفا عن ذلك الذي تعرفينه..

– اسمح لي، هذا غ.. ي.....

– اسمحي لي أنت وتكرمي بالوقوف.. قوامك جميل وتفاصيلك رائعة..

– ظننت أنك ستطلب مني الغناء.

– هذا ليس مهما الآن، فالمظهر يا عزيزتي هو العامل الأول للنجاح، وأود أن ألفت انتباهك إلى أن مظهرك المتواضع هذا لايروق لي.

– ها أنت قد تركت أهم ما في الموضوع "صوتي" ورحت تتحدث عن قوامي وملابسي، أنا لست عارضة أزياء.

– يجب أن تعلمي بأننا مقبلون على حملة إعلامية، أساسها الأناقة والأنوثة والجمال.

تذكرت صوتا جميلا لمطربة كفيفة، كان التليفزيون يبث أغنياتها على الدوام، مستعيضا عنها بعرض مناظر طبيعية، فينساب صوتها دافئا متناغما مع همس الشجر وجريان النهر الهادئ.

اشمأزت مما قال، فصرخت في وجهه:

- سحقا لك وللحملة الإعلامية..

لم تيأس.. كررت المحاولة أملا في الوصول إلى الهدف الذي جاءت من أجله..

كان يدندن على عوده حين دفعت باب مكتبه، اعتذرت له عن اقتحامها لخلوته على هذا النحو، ثم عرفته بنفسها، فطلب منها أن تغني:

- هل ستقفين هكذا كلوح ثلج؟

- كيف أقف إذن؟

- أين الأنوثة.. الدلع؟.. تمايلي ولا مانع أن تهزي.

- لا تكمل أرجوك، فأنا مغنية ولست راقصة..

- لا تعقدي الأمور فالجمهور.....

- سحقا لك وللجمهور.

وعادت من حيث أتت ثم أطبقت جفنيها على حلم يائس، وقررت ألا تحلم مرة أخرى



صدقوني

قاتمة تلك الليلة.. باردة.. مشحونة بالدخان، تنذر بعاصفة مدمرة، مجنونة أسقطت سنواتي في جب مظلم ليس له قرار، ومضت دون أن تلتفت إلي..

قاس ومريع ذلك المشهد الذي كنت جزءا منه، حملني هيكلي، بل أنا دفعته إلى مسرح مقفر لألعب دورا رئيسيا يشاركني البطولة رجل ميت، أنا الوحيدة التي تعرف سر موته.

تلك الليلة لم أنو الخروج، لكن شيئا ما كان يدبر في مكان من الكون الفسيح، ليجعلني الضحية.. مهلا.. هل أنا ضحية حقا؟ أم أنني الجانية؟!

المطر.. البرق.. صوت الرعد، ولدوا في أعماقي شعورا غامضا دفعني للخروج. خرجت يرافقني هاجس مرعب لم أعره انتباها لأنني انشغلت بمداعبة حبات الماء المتناثرة، التي أعادتني إلى زمن الطفولة والصبا، تذكرت أشياء كثيرة كنت قد نسيتها، اندمجت مع الذكريات، فساقتني قدماي إلى مكان يحوم الموت حوله..

لـم أتـردد فـي الصـعود إلـى الطـابق الثـاني، رغـم اتسـاع رقعـة الظلام، عـاودتني الهـواجس وأنـا أرتقـي السـلالم قاصـدة محـل السـيد حمدي، سألت نفسي: لماذا أنا هنا الآن؟

حقا ما الذي دفعني للذهاب إلى هناك؟ ليس ثمة ما يستدعي وجودي في ذلك المكـان، وفـي ذلـك الجـو المضـطرب، ربمـا لأنـني كنت بحاجة إلى من يفهمني! وهـذا الحـلاق العجـوز الـذي أتـم عامـه السـتين يعـرف كيـف ينتـزع منـي اعترافـاتي، فيـزيح عـن كـاهلي كـل الأعباء التي ترهق أعصابي، كما أنه مولع بالثرثرة كغيره من الحلاقين، وأنا بحاجة إلى أن أثرثر في تلك الليلة، لذلك لذت به..

يالوحشة ذلك المكان، إنه أشبه بمتاهة.. قطعت ممرا طويلا.. اخترقت العتمة مهتدية بالضوء الذي ينبعث من زجاج محله، الباب مغلق، لكني على يقين من أنه في الداخل فهو لم يعتد ترك البـاب مفتوحـا أبـدا بـرغم أن محلـه يقـع فـي ممـر ضـيق ولـيس هنالـك مـن يجاوره على الإطلاق.

أبواب الساعة الثامنة كانت تفضي إلى الجحيم، أبواقها مازالت تـنفخ فـي أذنـي، إنهـا لسـاعة فـاجرة، خلعـت عنـي ورقـة التـوت دونمـا حياء، ثم وقفت تشهد انهياري..

تلك الليلة كنت أبحث دون أن أدري عمن أبث إليه وجعي، لكنني سقطت في قاع آسن لوث اسمي وتاريخي، ياالهول تلك اللحظة، ركضت.. صرخت.. تخبطت في الفراغ.

نزلت السلم، لا.. لم أنزل السلم، بل تدحرجت عليه، فامتلأ جسدي برضوض وكدمات لم أشعر بها إلا فيما بعد..

استنجدت برجل كان يطوف في أحد الممرات، إنه الحارس، صعد معي.. دخل المحل بمفرده، بينما وقفت أرتعد خوفا عند الباب.

باغتتني نظراته، إنها كالحراب، أما تعبيرات وجهه فزادتني رعبا فوق رعب.. اقتادني إلى مكتب مازالت أبوابه مشرعة، في داخله يجلس ثلاثة رجال متدثرين بمعاطفهم ينتظرون انقطاع المطر بفارغ صبر..

رفع الرجل سماعة التليفون.. طلب الشرطة، فاستفسر الجميع.. قال وهو يرمقني بنظرة حادة:

– السيد حمدي... مات

وثب الرجال.. ركضوا ليستطلعوا الأمر، لكنه صاح محذرا:

– لا تلمسوه ريثما تصل الشرطة، فالوضع مريب.

توسلت إليه أن يدعني أذهب، فلا ذنب لي بما حدث.

– هل أنت مجنونة؟ ألا تدركين خطورة الموقف، علي أية حال، الأمر خرج من يدي والقرار سيكون لرجال الشرطة.

يطيب لي أحيانا أن أقرع نفسي وأقسو عليها، لأنها أوقعتني في محنة لم تخطر لي على بال، كان ينبغي أن أغادر المكان دون أن يلمحني أحد، لكنني تصرفت بغباء فأثرت سحابة أمطرتني بوابل من الشك والظنون.

ثمة من يضحك.. ثمة من زحف بنظراته الوقحة على جسدي الذي بدا عاريا أمامهم وهنالك من أطلق للسانه العنان وراح يحدثني بشبق:

– ماذا دهاك؟ ألا تحسنين الاختيار؟ ماذا أعجبك في ذلك العجوز؟ هل يدفع بسخاء؟ ها؟ كان ينبغي أن تأتي إلى هنا، أليس كذلك؟

آثرت الصمت ولم أدافع عن نفسي.. لم أكذب ظنونهم، فثمة ما يمنعني، كما أن الهيئة التي مات عليها الرجل تتهمني، لقد كان عاريا تماما، وعيناه متعلقتان بشئ ما في فضاء المكان، لم أفعل شيئا مما رموني به، لكنني لست بريئة، رغم أن الشرطة قد أطلقت سراحي، لأنها لم تجد ما يبرر حبسي.

تسرب النبأ إلى جميع أرجاء الحي، وإلى الأحياء المجاورة، ما إن أطل الصباح.

لم أحزن على نفسي قدر حزني على الفقيد، فلقد اتهمه الناس بالباطل وراحوا يلوكون سيرته بألسنة لا ترحم، حتي زوجته لم ترحمه، وأبت أن تقيم له العزاء ظنا منها بأنه مات وهو يمارس الرذيلة.

لم يصدقني أحد، الجميع أداروا لي ظهورهم، بمن فيهم زوجي الذي صب علي لعناته وجردني من جميع حقوقي..

الهروب هو الحل الأمثل للتخلص من جحيم الآخرين.. نفيت نفسي بعيدا.. ذهبت إلى أقصى الجنوب.. عشت مع خالتي المسنة، وضحت لها الحكاية أكثر من مرة، لكنها لم تصدقني هي الأخرى.

لماذا لا يصدقونني؟ لماذا يصرون على تكذيبي؟ أنا لم أرتكب فعلا مشينا كما يظنون، لكنني اقترفت ذنبا أفظع، لقد تسببت في موت الرجل، نعم أنا السبب في موته، رغم أن الكشف الطبي أكد أنه مات بالسكتة القلبية، أنا السبب، نعم أنا من تسبب في إيقاف نبض فؤاده.

كان ينبغي أن أطرق باب المحل قبل الدخول عليه، لكنني لم أفعل، وما أن رآني حتى أصابه الهلع.. اكفهر وجهه وانتابته رعدة عنيفة، لقد فاجأته..

كان عاريا تماما، يقف تحت عمود الماء المنساب من صنبور معلق في سقف حمام ليس له باب. ولست أدري ما الذي جعله يستحم في تلك الساعة المشئومة رغم برودة الجو، أهو قدره أم قدري؟!

ظللت للحظات أتابع حركته المضطربة وهمهماته المكتومة، يبدو أنه أراد أن يوبخني لأنني اقتحمت المكان دون استئذان، حاولت أن أعتذر له، لكنه سقط مغشيا عليه، أو هكذا ظننت..

كلما استعدت الماضي، زاد سخطي على الحياة، على البشر، وعلى نفسي أيضا..

مرت أعوام وأنا أعاني من الإحساس بالذنب تارة، ومن المصير الذي صرت إليه تارة أخرى، خسرت كل شيئ، وسمعتي هي أفدح خساراتي، لقد خسرتها دون جريرة مني وبرغم تقدم العمر، مازلت أبحث عمن يصدقني، لا أطمع الآن إلا في إيجاد من يصدقني، هل صدقتموني؟... أرجو ذلك.

لم يعترف

تؤلمني نظراته إذا ما رشقها في وجهي متتبعا آثار الزمن التي باتت تؤرقني بسببه..

أعوامي الأربعون لم تكن تقلقني، فمازلت أتمتع بأنوثة وحيوية، كما أنني أحتفظ إلى الآن بمسحة جمال تمنحني الثقة والرضى، أما الخطوط الصغيرة التي تحيط بعيني، أو تلك التي ترتسم على جبيني، فما هي إلا عوامل زمن طالته قبل أن تطالني، فهو يكبرني بثماني عشرة سنة ورغم ذلك لم أشعره بما يشعرني به الآن..

حياتنا كانت مستقرة حتى وقت قريب، فالخلافات التي تخللتها أحيانا لم تصل إلى الحد الذي يهدد أمننا أو استقرارنا، لكن الأمر اختلف هذه المرة، فثمة ما يوحي بأزمة.. أزمة قد تنهار في أعقابها حياتنا.

لم أفتر عليه.. لم أتوهم، لأنني شعرت بنظراته تجتاحني منذ أصر على أن يستعين في عمله بفتيات لا تتجاوز أعمارهن العشرين، وكثيرا ما تساءلت:

"هل يجرؤ هذا الرجل على أن يحطم كيانا بنيناه معا لمجرد أنني تخطيت الأربعين؟"

وبمرور الوقت صرت على يقين من أن انفجار موقف ما بات وشيكا؛ حيث ازدادت نظراته ضراوة، وأصبح يتحدث دون تردد أو حياء.

– بإمكان أي رجل ومهما كان عمره أن يتحدى الزمن، ويجاري أية فتاة، لأنها ستبث فيه روح الشباب وتمنحه الحيوية والنشاط، وأن الزواج من شابة في العشرين هو مراد كل رجل.

لم يحدث أن جادلته يوما فيما يقول، لأن كلامه كان كافيا لإحداث شرخ في نفسي، شرخ قوض الثقة الكامنة في أعماقي.. وبمقدار حبي له كان خوفي، ولكم خشيت أن تنتزعه مني إحدى اللواتي يعملن معه، ولم أتردد أحيانا بالقيام بزيارات مفاجئة لمقر عمله، وكثيرا ما وجدته برفقة فتاة ماكرة حاولت ولأكثر من مرة أن تستثيرني بحركات استفزازية مفتعلة، لكنني لم أولها اهتماما، حفاظا على كرامتي بالدرجة الأولى وحتى لا تسوء علاقتي بزوجي..

وبرغم السخط الذي أحمله له ولها لكنني قررت أن ألتزم الصمت، وأتعامل مع الحالة على أنها نزوة من نزوات رجل شارف على الستين.

ثم جاءتني الأنباء.. أنباء مغامراته التي ملأت الدنيا، فتلقيت الطعنات ببرود لم أعهده في ثم أصغيت إلى الحكمة التي حدثتني

بها نفسي، ذلك أن الرجل مهما كان لعوبا أو مراوغا أو جبارا، فإنه يبقي حريصا على ألا يقطع الشعرة التي تربطه بزوجته..

لم أفاتحه بشيئ، وإنما تركته لنزواته، رغم خوفي من أن أفاجأ يوما بنبأ زواجه..

كثيرا ما تعرضت لضغوط بعض الصديقات اللواتي كن يلمنني على صمتي ويتهمنني بالسلبية والضعف، كوني لم أتخذ موقفا رادعا يثنيه عن التمادي في تصرفاته التي باتت تقلق الجميع.

مرت أيام دون أن يدور بيني وبينه حديث قط، من ناحيته لم يحاول فتح حوار معي ربما لأنه تحاشى غضبي، أو لأنه لا يجد رغبة في التعامل معي من الأساس، أما أنا فكنت مشغولة في التفكير بحل جذري للمشكلة والقضاء على السبب الذي اتخذه ذريعة للقيام بكل الأفعال المشينة التي باتت تهدد صفو حياتنا، وهذا ما دفعني للاستعانة بطبيب جراح، أستعيد من خلاله زوجي وشبابي..

تكتمت على الخبر بالطبع.. ادعيت أنني مصابة بالتهاب الزائدة الدودية فدخلت المستشفى بحجة استئصالها أجريت لي العملية بنجاح، وعندما علم بالأمر قامت الدنيا ولم تقعد، اتهمني بالتفاهة والاستهتار، قال إنني امرأة غير واقعية تريد أن تأخذ زمنها وزمن غيرها..

لماذا لم يقل هذا الكلام لنفسه.. ماذا أرادني أن أفعل؟.. أن أهدر كرامتي وأقف في مجابهة فتيات هن في سن ابنتي، أم أن ألجأ إلى الدجالين والمشعوذين لاسترداده..

لم أنبس بحرف ورحت انتظر بصبر شفاء جروحي..

مرت الأيام ثقيلة، لكن المفاجأة كانت كفيلة بأن تمحو آلام الأيام الماضية، والحقيقة أن فرحتي بعودة زوجي كانت أعظم من فرحتي بعودة شبابي.

عادت المياه إلى مجاريها كما يقولون، فلقد انبهر زوجي وأصبح يقضي جل وقته في البيت، حتى أنه صار لا يخرج إلا بصحبتي.

وما كادت أيام الفرح التي عشناها معا تنقضي، حتى أدركت أنني مقبلة على مشكلات جديدة لم أضعها في حساباتي.

في البداية لم أعط لتلك المشكلات أدنى أهمية واعتبرتها ردود فعل لوضع جديد، لكن سرعان ما تفاقم الأمر وتصاعدت شدة الخلافات حتى شملت أبنائي.

بالنسبة لزوجي فمن الطبيعي أن تسعر الغيرة قلبه خاصة عندما يظن الغرباء أنني ابنته، وكثيرا ما كان يلمح في عيون الرجال نظرات غير بريئة، أما أصدقاؤه فصاروا يحسدونه علانية مما دعاه إلى

مقاطعتهم ومقاطعتي أيضا، لأنه اتهمني بأنني السبب في إحراجه وجعله يعيش في معزل عن الناس.

حاولت كثيرا أن أحتويه وأن أخفف من حدة توتره لكنه تجاهلني وأصر على موقفه.

آلمني موقف ابنتي مني، لأنها أصبحت تعاملني معاملة الند للند، تغار مني أحيانا وتتجاوز حدود الأدب أحيانا أخرى، ذلك لأنها لم تعد تشعر بأني أمها، لأنني فقدت وقاري بعد تلك العملية على حد قولها.

أما ولدي الأكبر فقد أحجم عن الخروج معي، وامتنع عن السماح لأصدقائه بدخول المنزل، لأنهم كما يزعم يتطلعون إلي بشبق، مما يضعه في حرج، وبهذا تحولت حياتنا إلى جحيم، وزاد الموقف سوءا تضامن الأولاد مع والدهم، فكان أن انتهى الأمر بالطلاق.

هل سعيت بنفسي إلى هذا الخراب؟.. هل كان زواجنا سيستمر لو أنني لم أقدم على تلك العملية؟.. أعرف أنه لا جدوى من التساؤلات، فحياتنا قد انهارت بالفعل، ربما سيقيم على أنقاضها حياة أخرى، فهو لم يعترف بأنه كان السبب في ذلك الانهيار، ولن يعترف!!

صيادون

على الرصيف وقفت بكامل زينتها.. تحدق في الساعة بنفاد صبر، بنظرات وقحة راحت ست عيون تلتهمها من خلف الزجاج..

في سيارته الفخمة ذات العلامة المميزة، جلس رجل وسيم يمني نفسه.. وتحت ظلال شجرة الكالبتوس الشاهقة ثمة رجل يوحي شكله بوقار مزيف، ينتظر خلف مقود سيارته التي تحمل رقما مميزا لحظة الاقتناص..

بنفس الحماس أخذ مكانه في الصف شاب يقود سيارة سباق.

قال الوسيم بشيئ من الزهو:

– ستكون من نصيبي.

أما ذو الرقم المميز فقال:

– أبيع عمري مقابل ليلة واحدة.

فرك الشاب راحتيه وهتف:

– هكذا الصيد وإلا فلا..

احمر وجه المرأة وشاب نظراتها الاضطراب.. ابتعدت بضع خطوات.. تلفتت يمينا ويسارا.. أجالت النظر هنا وهناك، ثم ابتسمت فجأة، فتهيأ الجميع.

وهنا توقفت سيارة رابعة، من نافذتها أطل برأسه طفل صغير.. صاح بفرح:

– تبدين رائعة الجمال يا أمي..

رقصة

هكذا أنا.. أصغي إلى همس روحي، فهو دليلي الذي أستعين به لتعزيز الثقة التي كثيرا ما أتردد قبل أن أمنحها إلى الآخرين.

الحب بشكله التقليدي لم يكن ليستهويني، فطويت صفحته واكتفيت بمحبة الأصدقاء، حتى شعرت بإحساس لذيذ يتسلل إلى أعماقي.

دخل مدينتي الروحية، لا بمحض صدفة وإنما تدريجيا عن طريق بعض الأصدقاء..

انضم إلى مجموعتنا المنتقاة، فأثرى جلساتنا بغزير معلوماته، حاز على إعجاب الجميع، الكل صرح له بذلك، لكنني لم أفعل، لأني كنت أتستر على تفاعل روحي بدأ في التنامي، كما أنني حاولت تدارك شعورا متصاعدا نتج عن ذلك التفاعل..

أي جنون يتملكني ما إن تشرق شمسه الدافئة على جنائن روحي.. جداول خمر تنداح في مساربها.. تخمد اللظى الذي يعتريها، فتنفلت سابحة في فضاء فردوسه.

ترى هل أحس برفيف أجنحتي.. هل اعتراه ما اعتراني من شد وجذب وجنون؟

كادت أجنحتي أن تتكسر حينما سمعت نبأ رحيله، لم يخبرني أحد أنه موشك على الرحيل!

لم أعلم من قبل أنه يقيم خارج حدود مكاني وزماني، لماذا منّ الدهر علي إذن بهذا الكم من اللقاءات؟!

اللقاء الأخير كان صاخبا إلى الحد الذي جعلني أفكر بالانصراف؛ فأعصابي كانت متوترة وغير مهيئة لاحتمال ذلك الضجيج، كما أنني كنت حريصة على ألا أكون مبعث قلق للأصدقاء الذين كانوا ينعمون بالمرح والسعادة.

آه.. نسيت أن أنوه إلى أن مجموعتنا التي تتكون من خمسة أشخاص، اختارت يوم الاثنين من كل أسبوع موعدا ثابتا للقاء، ويعد هذا اليوم متنفسا لكل فرد منا، ففيه نمارس ديمقراطيتنا المزعومة ونلقي الضوء على ما يدور حولنا من أحداث، كما أننا نتبادل الرأي والمعلومات، فنحن على اختلاف ثقافاتنا نشكل مزيجا متجانسا وطاقة يغذي بعضها البعض.

هدأ الصخب ولم يهدأ توتري، قالت صديقتي:

– فنجان القهوة برد ولم تلمسه يدك.. بماذا تفكرين؟

– في اللا شيئ.

– لكنك كنت تسرحين بعيدا.. بعيدا جدا.

– ربما... لكنني لا أفكر بشيء على وجه التحديد.

– صمتك بات ملفتا.. ماذا هناك؟

ـ لا شيئ صدقيني.

– لماذا لا تشاركينا الحديث إذن؟ هذه ليست عادتك.

حملت ردودي نبرة واهنة ومبررات لم أستسغها أنا نفسي، أنقذني صوته من الفخ الذي كادت أن توقعني به صديقتي دون أن تقصد.

كان صوته يحمل مزيجا من الجد والسخرية:

– أية ديمقراطية هذه التي تتشدق بها أمريكا، هؤلاء البشر تجاوزوا حدود الغباء، وأصبحوا لا يدركون إن العالم كله يسخر منهم، ديمقراطية الحرب هذه صيحة جديدة في عالم السياسة الأمريكية، ونأمل ألا تصبح موضة العصر.

قال أحد الأصدقاء:

– لكن الشعب العراقي نفسه صدق ادعاءاتهم.

– لا.. الشعب العراقي ليس بهذه السذاجة، وها هو أمامنا يجسد أروع البطولات، وسيظل يقاوم ويقاوم حتى يحرر بلاده من براثن الغزاة،كثيرا ما يتملكني الخجل يا أخي وأنا أجلس بين أفراد أسرتي مكتوف اليدين، أين دورنا كعرب.. كلنا مقصرون بحق هذا الشعب و..

توقف الكلام بالنسبة لي، ولم أعد أسمع سوى هذه الجملة "يتملكني الخجل وأنا أجلس بين أفراد أسرتي" له أسرة إذن! هذا ماكان ينقصني.

انتهت الجلسة بسلام ، ودَّعنا.. غادر المكان، لكنني أقسم أنه لم يغادر مرفأ روحي حتى بعد أن تجاوز حدود البلاد.

مرت الشهور شديدة الوطأة على روحي الهائمة به، عليّ أن أتجرع مرارة أيامها، ساعاتها، ثوانيها.

وأن أحتمل تيارات الشوق التي أطاحت بما تبقى لدي من صبر واحتمال.

لا شيئ سوى الوقت أجدل ضفائره وأجعل منه وقودا يزيد من لهيب دمي، لجأت إلى النوم علني أفلت ولو لبعض الوقت من محرقة الزمن الذي بات شغلي الشاغل..

هنالك قناعة احتلت حيزا من تفكيري، هذه القناعة تؤكد لي إنه على علم بما أكابد من لوعة وأحزان، وإن تيارات الشوق التي تجتاحني ما هي إلا انعكاس لمشاعر أحسها هو أولا، ثم ارتدت إلي.

مع كل خفقة حب، مع كل لحظة ألم، أزداد يقينا بأن هنالك رابط يربط روحينا، هذا الرابط لا يخضع لمنطق المسافات، فليرحل بجسده حيثما شاء، أما روحه فلم تغادرني أبدا..

نفدت أوراق التقويم.. نفد صبري، ها أنا على موعد مع الفرح الذي سيتسلق جبل أحزاني، فلقد أزفت ساعة اللقاء..

كنا على وشك الانصراف، لما أقبل على مجلسنا بابتسامة تنم عن فرح واشتياق، رشق عينيه في عينيّ دون سواي، ارتبكت، غمرني الفرح، أدركت أن يقيني كان على صواب..

هدأت عاصفة الترحيب.. تدفقت الأسئلة من كل اتجاه، كان يتحدث وعيناه لا تغادران عينيَّ.

شعرت بالشوق الذي تكابده روحه.. اشتد وجع روحي، لكن سرعان ما تلاشى كل شئ من حولنا عندما بدأ حوارا غير مسموع يدور بيننا..

تلك الومضات التي تشع من عينيه، سرت كما الحريق في مجرى دمي، فانطلقت روحي لتعانق روحه في رقصة روحانية، على

أنغام موسيقى سماوية، لا يعرفها إلا من ذاق حلاوة ذلك العناق، يا لها من نشوة ساحرة لا يمكن أن تصل إليها غريزة الجسد الحمقاء.

أدركنا الوقت.. تباً للوقت، لحظات وسأسقط في جب الانتظار من جديد، غادر المكان؛ غادرني الفرح، ومضيت ترافقني أحزاني والنشوة التي سرت في العروق.

مرة أخرى، الانتظار.. الشوق.. الألم، لكن عزائي هذه المرة، أنني ألتقي وإياه عند نقطة واحدة، ربما تكون هذه النقطة وهمية، لكنها بالنسبة لي نقطة وحسب.

عدت إلى أوراق التقويم أطوي صفحاتها ورقة ورقة، تملؤني اللهفة للوصول إلى اليوم الذي سألتقيه فيه، هكذا صرت أمزق أيامي، متجاهلة كونها محسوبة من عمري..

انصرم العام.. أهلّ شهر آب.. سيهل هو أيضا، بعد أيام ستبدأ أجازته، وسيبدأ عامي الجديد، فسنتي مرهونة بقدومه، لذلك لابد أن أحتفي بقدومهما معا..

صرت "بابا نويل" قدمت الهدايا لنفسي.. اقتنيت أحلى الثياب، ورحت أتأهب لاقتناص اللحظة التي ستحتضن عيناه عينيّ.

لم أحظ بلقائه، لا أدري ما الذي حدث، وكيف أصبت بحمى منعتني من الخروج.. حضر موعد يوم الاثنين، افتقدني.. سأل عني.. حمّل الأصدقاء تحياته وتمنياته لي بالشفاء.

هل سألتقيه ثانية؟ كان ذلك في علم الغيب.

تمنحنا الأقدار أحيانا بعض الهبات، فما أروع الساعة التي جمعتني به، لكأنها خرجت من بين أحلامي لتفاجئني به.

كنت أجرجر أذيال خيبتي وأنا أسير في شارع لم تطأه قدماي من قبل، لمحته عن بعد، يا إلهي إنه هو! رآني هو أيضا.. تلاحمت أعيننا، وفي المسافة التي تباعد ما بيننا، أفلتّ زمام روحي، فانطلقت لتعانق روحه في رقصة روحانية على أنغام موسيقى سماوية، في مشهد لا يتكرر إلا مرة كل عام.

اقتربت المسافة بيننا.. تجاوز أحدنا الآخر، ربما تكون زوجته هي التي برفقته، سرت بضع خطوات.. استدرت.. استدار هو أيضاً.. رمقني بنظرة حنون ثم مضى، فمضيت.

عدت مخمورة بالنشوة، أسأل نفسي هل ما حدث كان حقيقة أم خيال؟.. أخرجت أوراق التقويم لأمزق أيامي القادمة، وأنا أنتظر بفروغ صبر رقصة عام جديد.



بعد رحيل الليل

خرج من فم الزقاق النائم تحت وطأة الليل لاهثا متلفعا بالحزن، يلعن الساعة التي ولد فيها.

سار في الشوارع المقفرة دونما هدف، تلقفته الأرصفة المخضلة بمطر كانون، تعثرت قدماه، توقف، أشعل سيجارته وهو يتطلع بعينين مكدودتين إلى المدى الشاسع اللامتناهي، ابتلعه الصمت، فبدا له العالم موحشا مسكونا بالخوف.

تهالك على أحد الأرصفة المهجورة، ثم غاص في غياهب نفسه مسلطا الضوء على كوامنها الدفينة..

"ما الذي أوصلني إلى ما أنا عليه الآن؟.. هل ما حدث كان مقصودا أم أنهم نيام حقا؟"

أحس بالخجل لما آلت اليه نفسه، واعترته رغبة جامحة في أن يصرخ.. يصرخ.. بعلو صوته ليطيح بذلك الثقل الذي يجثم على صدره كصخرة..

انحدرت على مسارب وجهه دموع مستفيضة، أثارت دخيلته فطفق يحملق في اللاشيء تاركا لخياله العنان..

كان اسمه يتصدر لائحة الأسماء المرشحة للبعثة إلى الخارج، لكن اسمه حذف ليحل محله اسم آخر دون سبب ظاهر..

انهار عالمه في لحظة وتهدمت كل القيم الراسخة، وبدت له الحياة ضئيلة لا تستحق الجهد ولا التفكير، فآثر حياة اللهو والعبث واضعا كرامته وكبرياءه في محفظة نقوده الخاوية، متعكزا على أشقائه المثقلين بالفقر وهموم الحياة..

اخترقت الظلام حزمة ضوئية لسيارة تعمل بعين واحدة، لاحقتها نظراته حتى تلاشت عن الرؤية، اتسعت حدقتاه فجأة، ثمة صور راحت تتراقص وتتجسم تحت الضوء المنسكب من مصباح الشارع..

مسح المكان الغارق بالظلام ثم قال بنبرة واضحة:

– أربعة عشر عاما وأنا أعيش في حالة من اللاوعي، لا أعرف كيف هانت علي نفسي أين كان عقلي؟ زميلي محمود قد وصل الآن لدرجة استشاري زراعي، وكامل يمتلك في بلده أرضا خصبة يأكل منها الشهد – على حد قوله – وأنا.. ماذا أنا الآن؟ أنا لا شيء، أنا مجرد إنسان خال من أية قيمة تذكر، لقد تركت سنين عمري تهرب من بين يدي لتغوص في بحر الزمن.. حياتي أشبه بصحراء مجدبة، لا زوجة، لا أولاد، لا بيت يؤويني، أشعر وكأنني عجوز هرم لا يقوى على فعل شيئ..

اشتدت وطأة البرد على جسده، أحكم إغلاق سترته، تكور على نفسه، ثم استطرد يقول:

"أنت جبان يا عماد.. أنت أحمق كبير، ألقيت أسلحتك في أول مجابهة لك مع الحياة، تخليت عن مسؤولياتك ملقيا اللوم على الآخرين.. هل أنت ضحية حقا؟ أم إنك ادعيت ذلك؟.. ضياع فرصة لا يعني نهاية العالم، كان من الممكن أن تأتيك فرصة أخرى لكنك لم تصبر.. هيا يا عماد قم وانفض عن رأسك هذيانه، وتخل عن نظرتك الساخرة للحياة، العمل عبادة يا أخي، كفاك احتقارا من أقرب الناس إليك، هيا افعل شيئا قبل فوات الأوان، ليست هذه الحياة التي أرغب، هيا.. هيا.."

انتفض من مكانه، وصرخ ممزقا صمت الليل:

"وداعا أيها الكسل، وداعا سني العبث واللامبالاة، غدا سأبدأ من جديد، وليذهب العاطلون إلى الجحيم"

ومع اطلالة الصباح، كانت السماء صافية واعدة بالدفء، وثمة حركة دؤوبة لعمال وجنود وباعة متجولين، ولما بدأ دبيب الحياة يزحف نحو الأزقة، كان هو يرقد في بيت أخيه مستغرقا في نوم عميق!!



على ذمة التحقيق

ما من أحد يملك سلطة إخراجها من ذلك المأزق اللعين، فثمة تهمة منسوبة إليها، وامرأة توجه أصابع الاتهام إليها بالتحديد، وشاهدة نفي لا يُعتد بشهادتها لأنها شقيقتها..

بإيقاع سريع تطور الموقف رغم سعيها الدءوب للسيطرة على هيستيريا امرأة اجتذب صراخها أصحاب المحال التجارية المجاورة، فتدفقوا على المكان حتى اكتظ بهم..

ذهبت محاولات الرجال سدى، فقد أخفقوا في تهدئة المرأة الغاضبة ولم ينجحوا في إقناعها بحل المشكلة بهدوء ودون اللجوء إلى إبلاغ الشرطة، لكنها أصرت على استدعائهم بحجة أنها لا تنوي اتهام أحد وإنما تسعى لإثبات حالة وحسب..

أعلنت سرينة الشرطة عن اندلاع أزمة ستحل بالشقيقتين اللتين تعملان في مركز تجميل جاهدت صاحبته أن تجعله في منأى عن الأقاويل وبلبلة المتطفلين..

استنتج رجال الشرطة من أحاديث النساء الثلاث أن هنالك امرأة رابعة مجهولة الهوية بالنسبة للجميع، وهنالك ملابسات وجنحة، فاقتادوا النساء إلى المخفر لاستكمال التحقيق..

في المركز أصرت المرأة المتضررة على تقديم شكوى ضد إحدى الشقيقتين متهمة إياها بالتواطؤ مع المرأة المجهولة التي قامت بسرقة حقيبة يدها..

أدهشت كلماتها شقيقة المتهمة فقالت بحنق:

– إن تلك المرأة ليست إلا زبونة عابرة لا أحد يعرفها، وهذه هي المرة الأولى التي تدخل بها إلى المحل، وإن كانت قد سرقت الحقيبة، فما شأن شقيقتي بذلك..

أجابت المدعية بنبرة ساخرة:

– تدعين أنها لا تعرفها، إذا كانت كذلك فلماذا حاولت إجراء مكالمة هاتفية تبغي من خلالها التحدث شخصيا إلى زوج تلك السارقة؟

التفت الضابط إلى المتهمة التي أدهشتها الصدمة وعقد لسانها الذهول..

– ما اسمك؟

– يسرا عبد الكريم..

– ما رأيك فيما ذكرته المدعية؟

– رأيي في ماذا؟

- أرجو أن تركزي معي، لأن موقفك صعب للغاية فهنالك تهمة موجهة إليك..

- اعذرني.. فأنا لم أتعرض في حياتي إلى موقف كهذا، وهذه هي المرة الأولى التي أدخل بها مركز شرطة..

- انتبهي.. أنت الآن في مأزق وعليك أن تجيبي على الأسئلة بدقة، هل تعرفين تلك المرأة، وهل أجريت لها مكالمة تليفونية بالفعل؟

- هذا ما حدث بالفعل..

- تكلمي بالتفصيل..

- أقسم أنني لم يسبق لي أن رأيت تلك المرأة وهي المرة الأولى التي تدخل بها إلى المحل كما قالت لك أختي..

- لماذا كنت تنوين التحدث إلى زوجها؟

- كانت أختي مشغولة بقص شعر هذه المرأة التي تتهمني، حين دخلت الأخرى، قالت وهي في حالة ارتباك لم ألق له بالا، إنها ترغب في استبدال لون شعرها بلون آخر لا تعرف أن تصفه لي لكن زوجها بإمكانه ذلك، ثم أضافت وهي تناولني ورقة صغيرة تحمل رقم تليفون، أن زوجها قد ذهب إلى بيت أهله بعد أن أوصلها إلى هنا

وإن علاقتها بأهله ليست على ما يرام، لذلك فهي لا ترغب بالتحدث مع أحدهم إذا ما رد على الهاتف، فرجتني أن أتحدث نيابة عنها، وعندما بدأت بتزويل الرقم، وجدتها تهرع نحو الباب صائحة:

– ضعي السماعة فها هو قد حضر، سأكلمه ثم أعود ثانية..

أغلقت سماعة التليفون ثم رحت أنتظر عودتها لكنها لم تأت، وبعد أن انتهت هذه المرأة من قص شعرها صرخت كمن لدغه عنكبوت:

– حقيبتي.. أين حقيبتي؟

استغربت وأختي، قلت لها:

– ها هي الحقيبة، ألا ترينها.. ما بك؟

صرخت مرة أخرى:

– هذه ليست حقيبتي..

تساءلت وأختي في وقت واحد:

– هذه الحقيبة لمن إذن؟!

فتحت الحقيبة.. وجدتها خاوية تماما، فاستنتجت أن تلك المرأة الماكرة قد شغلتني بالتليفون لتتمكن من استبدال الحقيبتين، هذا ما حدث بالتفصيل، ولا أعرف لماذا تصر هذه المرأة على اتهامي رغم أنها سمعت كل ما دار بيننا..

سأل الضابط المدعية إذا كان ما ذكرته المتهمة صحيح أم لا:

– كل ما قالته صحيح، لكنها شريكتها، وأنا مازلت أتهمها بالتواطؤ..

لم يكن بوسع الضابط إلا قبول الشكوى، رغم أنه على يقين من براءة المتهمة، وعلى يقين أيضا أن هذا الحادث ليس الأول من نوعه وأن هنالك أكثر من شخص قد دبر لتنفيذه..

لم تدخر صاحبة المحل جهدا لإخراج يسرا من قسم الشرطة، لكن محاولاتها لم تثمر فقالت للضابط:

– لم تحتجزونها؟

– ستعرض على قاضي التحقيق..

– هي لم تفعل شيئا..

– لكنها متهمة..

– متهمة بماذا؟ أرجوك دعني آخذها معي وأتعهد لك بأنني سأحضرها صباحا..

– صدقيني.. هذه ليست من صلاحياتي..

– أنت تعرف بأنها بريئة..

– هذا صحيح..

– لماذا لا تساعدها إذن؟

– القانون هو الذي يحتم علي ذلك، فهي قانونيا متهمة، مادام هنالك من يتهمها وستبقى كذلك إلى أن ينظر قاضي التحقيق في أمرها..

– أرجوك اخل سبيلها بضمان محل إقامتها، أمها مريضة وستصاب بنكسة اذا لم تعد ابنتها إلى البيت..

– أرجوك أنت ألا تضغطي علي..

– كيف ستقضي ليلتها؟

– سترحل إلى سجن النساء..

– سجن النساء!! كيف يمكنكم أن تزجوا بامرأة بريئة وسط نساء خارجات عن القانون؟

– هذا هو القانون..

– هنالك طلب أخير أرجو ألا يكون خارج نطاق صلاحياتك، أريد أن أوصلها بسيارتي..

– موافق..

انهارت يسرا وهي في طريقها إلى السجن، تضرعت إلى الله، توسلت اليه أن يخرجها من محنتها التي لا تقوى على احتمالها، قالت لصاحبة المحل:

– أنا لم أفعل شيئا حتى أذهب إلى السجن..

– الجميع يعرف هذا، فاصبري إن الله مع الصابرين..

قالت وهي تدخل عبر بوابة السجن العملاقة:

– أية ذكريات سيحملها رأسي بعد الآن!!

لم تكن الليلة الأولى سيئة إلى الحد الذي توقعته، لأنها أمضت الليل بطوله وهي تصغي إلى أحاديث النساء وقصصهم التي جعلتها تشعر بأنها أفضل حالا منهن.

فهنالك متهمات زجوا إلى السجن بسبب جرائم لم يرتكبنها، وأخريات هجرهن الأمل فوطنَّ أنفسهن على حياة السجون، وأصبحن يتصرفن وكأنهن في بيوتهن..

في الصباح وقفت يسرا أمام القاضي الذي أمر بحبسها أربعة أيام على ذمة التحقيق..

مضت الأيام الأربعة، وتبعتها أيام أخر دون أن يجد في قضيتها جديد..

لم تفقد الأمل طيلة تلك الفترة وظلت في حالة ترقب وتأهب، تتأمل بصمت وجوه النساء القابعات تحت خيمة اليأس رافضة الانضمام إلى خيمتهن، لكنها ستنضم إليها عما قريب..

كان معي

كان ذلك الهاجس الذي أفعم نفسي خوفا منذ ساعات النهار الأولى نذير شؤم لحدث ما بت أتوقعه..

قضيت يومي أطوي ساعاته بصبر نافد حتى انطفأ نور النهار، وحل الليل بصحبة سحابات تحمل خيرا لأرض عطشى..

استعدت بعضا من مرحي وشعرت بالنشوة تدب في جسدي بعد أن فتحت النافذة واستنشقت نسيما معبقا برائحة المطر..

لا أعرف كم من الوقت أمضيت وأنا أستمتع بمنظر المدينة، كانت هادئة ساكنة، لكأنها خلت من أهلها، بعد أن تواروا مختبئين من الزخات التي تصاعد وقعها وكأني بهم خلدوا إلى النوم كالدجاج منذ أن حل الظلام..

اغتسلت البيوت والشوارع بالماء فبدت أكثر جمالا، أما الأشجار فراحت تتراقص من فرط ابتهاجها بذلك الزائر الذي جاءها بعد غياب..

كنت أرغب في الوقوف والاستمتاع بتلك اللذة مدة أطول، لكنني شعرت بقرصة برد تتسلل إلى بدني، فأغلقت النافذة وارتميت على السرير.

لست أدري كيف تسلل النعاس إلى جفني، وأطبق عليهما بمهارة جعلتني أغط في نوم عميق..

– من أنت؟

– ألا تعرفينني؟

– بل أعرفك لكنك تبدو أكثر شبابا..

– بما أنك لاحظت ذلك، فأنت ترينني إذن..

– بالطبع أراك، لكن ماذا تقصد؟

– أعني أنهم هناك لا يرونني! ولا يشعرون بوجودي!!

– هناك.. أين؟

تهاوى جسدي فوق أديم الأرض فنهضت فزعة، جاب بصري أرجاء الغرفة باحثا عن الساعة التي نسيت موقعها آنذاك.. كانت تشير إلى الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل.

اندفعت نحو الشرفة مهرولة، وطفقت أتمعن في الطريق، فلقد تأخر زوجي على غير عادته.

ماجت في رأسي أفكار شتى، اجتاحني على إثرها اليأس، فغرقت في صمت مشوب بالقلق..

هبت علي حين فجأة نسمة مترعة بعبير الأزهار الموسمية فأزاحت عن صدري انقباضة مؤلمة، أعقبها شعور بالارتياح..

كان المطر قد توقف حينها إلا من بضع قطرات، تسلل البرد إلى نفسي هذه المرة فغادرت الشرفة تتقاذفني أمواج من التساؤلات.

– ترى هل تعرض لحادث.. هل أصابه مكروه؟ هل... وهل... وهل؟ متوترة دخلت إلى غرفتي.. خففت الإضاءة.. جلست في ركن معتم، أنتظر قدومه بفروغ صبر، ثم تفشى صمت طويل..

– ها أنت ذا قد عدت..

– لا أحد غيرك يسمعني..

– ماذا عن أمي.. إخوتي؟

– أمك حزينة تبكيني، وإخوتك يولولون كالحريم..

– لماذا؟

– يدعون أنني مت، حتى أنهم أخبروا الجيران والأقارب، البيت مكتظ بالناس!!

– لكنك حي!

– ليتك تخبرينهم..

- ولماذا لا تخبرهم بنفسك؟

- لقد عجزت عن ذلك، لأنهم لا يسمعونني كما قلت لك..

- عجيب! حاول مرة أخرى

- لم يعد هنالك وقت، فلقد حان وقت الرحيل..

- رحيل؟ ترحل إلى أين يا أبي؟!

- صدقيني.. لست أدري..

انتفض جسدي وانتابتني رعشة برد، لم أكن على يقين بأن الحديث الذي دار بيني وبين أبي كان حقيقة أو حلم..

جرس الباب عاود الرنين..

لم أكن على ما يرام.. جرجرت خطواتي بتثاقل.. كنت أتوقع فجيعة ما..

بدا وجهه شاحبا، مفعما بالحزن..

- لماذا تأخرت؟

من قاع سحيق جاءني صوته:

- البقاء لله..

خرجت معه دون أن أنبس بحرف، لأنني أدركت بأنني الوحيدة التي رأت أبي بعد أن غادر جسده، وقبل أن ينتقل إلى العالم الآخر.

خطي

أقسم أنه رآها وأنه على يقين من أنها هي..

تحدث بدقة عن الوضع الذي وجدها عليه، قال إنه تحاشى الظهور أمامها، لأنه لم يشأ إحراجها، فالوضع مهين.. مهين للغاية..

أصغت إليه بتوتر.. بدت على وجهها سيماء الخجل.. تململت.. قالت بصوت كسير:

– أمي.. أمتأكد أنت؟

أشفق عليها.. احتضن وجهها بباطن كفيه.. طلب منها الهدوء لتتمكن من معالجة الموقف بحكمة دون أن تجرح والدتها أو تضعها في حرج.

– لا أصدق أمي! لماذا؟ ما الذي ينقصها؟ لقد تخطت الخمسين بأعوام، هل جنت هذه المرأة؟ كيف تمكنت من فعل ذلك؟ ألا يهمها أمرنا؟ ماذا لو اكتشف سرها أحد سوانا؟ يا لها من فضيحة..

– اهدئي حبيبتي، الانفعال لا يحل المشاكل، دعينا نفكر بروية.

– نفكر بماذا؟ نحن لم نخطئ بحقها حتى تضعنا في هذا المأزق اللعين..

– أرجوك حبيبتي.. انظري إلى الموقف من زاوية أخرى..

– كيف؟

– أريدك أن تناقشي الأسباب لا النتائج..

– فكر معي إذن في السبب الذي دعاها لارتكاب خطأ كهذا..

– ربما نكون قد أهملناها أو أهملنا احتياجاتها!!

– أتظن ذلك؟

انسحب الحاضر لوهلة، وحل الماضي بألقه المعتاد، أمها تتألق كنجمة، طواحين الفرح تنثر السعادة في أرجاء البيت المترع بالحب، مظاهر الفرح لا تغادر المنزل، فلا تكاد أمها تنهي احتفالا حتى تفكر في إقامة آخر، لقد دأبت على استقطاب الأصدقاء من خلال حفلاتها المستمرة، لأنها تجد في ذلك متعة لا تضاهيها متعة سواها..

أمها ملهمة أبيها، لا يكاد مكان في أنحاء البيت الكبير يخلو أحد جدرانه من لوحة تجسد جمالها المبهر أبدعتها ريشة زوجها العاشق، لقد أحبها لدرجة جعلته ينفق أموالا طائلة على حفلات

السمر التي تستهويها وعلى مقتنياتها الباهضة وإسرافها الذي لا يقف عند حد، ولم يبخل عليها بوقته الثمين لشدة ولعه بها..

لكن الحياة كما هو دأبها على الدوام، تسحب البساط من تحت الأقدام دون مقدمات، فلقد مات زوجها إثر إصابته بمرض خبيث، بعدما أنفق نصف ثروته أملا في العلاج، ثم توافد الأبناء.. أبناؤه من زوجته الأولى، فتبخرت الأموال، ولم يتبق لها سوى البيت الذي تسكن فيه..

انحسر الفرح.. ذبلت السعادة.. تلاشت الأمنيات، وحل الخواء في النفوس، إثر الحصار الذي جثم على البلاد، مما اضطرها لبيع مجوهراتها مرة تلو مرة، حتى نفدت ممتلكاتها، فاقترحت عليها ابنتها بيع البيت الكبير وشراء آخر أقل منه ثمنا، وهكذا يصبح بإمكانهما أن يقيما بالمبلغ الفائض مشروعا صغيرا يعود عليهما بدخل يفي باحتياجاتهما المعيشية..

وقبل أن تنتقل إلى البيت الجديد اكتشفت الفخ الذي وقعت فيه، ولم يمكنها عقد البيع الابتدائي من استرداد حقها، لأنه أبرم مع امرأة لا تملك شبرا في ذلك العقار، فهي مستأجرة ليس إلا، تمكنت بأسلوب خداعي ماكر من إقناعها بدفع المبلغ كله قبل التسجيل لأنها تمر بظروف صعبة للغاية، وما أن تسلمت المبلغ حتى غادرت البلاد على الفور..

القانون لا يحمي المغفلين، عبارة ترددت كثيرا في ظل الوضع المتردي الذي أصبح يعاني منه الجميع، وهكذا ضاع الأمل بضياع المال الذي تسرب من بين يديها بأكذوبة..

فاضطرت لاستئجار بيت بما تبقى لديها من مال، وعندما تزوجت ابنتها انتقلت معها إلى بيت الزوج، لأنها لم تعد تملك ما يوفر احتياجاتها، ولم يتبق لديها من سنوات العز والرخاء إلا الذكريات التي صارت مبعث ألم وحسرة..

مر الليل ثقيلا على الابنة التي أذهلتها المفاجأة، يبدو أنه تواطأ مع الأرق، فلقد طالت ساعاته وبدا لها النهار أشبه بأمنية بعيدة المنال..

أرهقها السهاد فأغمضت عينيها بعد طلوع الفجر.. أمها تزهو بثيابها الحريرية.. تجلس على أكداس من النقود، وبين الفينة والأخرى تكبش حفنة من الدنانير لتطوح بها في فضاء المكان ونظراتها تتابع هبوطها بسعادة..

– أنت أجمل امرأة على هذه الأرض، هكذا كان يقول لي والدك وسأبقى كذلك، فأنا أمقت الشعر الأبيض وخطوط الزمن التي تحيل المرء إلى كائن آخر غير مستساغ من قبل الذين هم أصغر منه سنا، لأنهم يظنون أنه لم يعد له دور في هذه الحياة، يحددون إقامته..

يسحبون منه صلاحياته.. يقررون نيابة عنه.. يعاملونه كما الأطفال ويفرضون عليه وضعا لا يتوائم مع إرادته وطبيعة تفكيره، ولو كان بأيديهم لأطلقوا النار عليه لأنه شاخ وهرم، وهذا لا يمكن أن يحدث معي، فأنا امرأة من طراز خاص، أحب المال وأعشق الحياة، لن أسمح لأحد أن يعاملني ككم مهمل في طريقه إلى الزوال، أنا لست كذلك، مادمت على قيد الحياة، وبمالي سأستعيد ألقي وحضوري..

أيقظها زوجها بحنو، أفاقت فزعة:

– رأيت أمي في المنام، قالت لي كلاما أظنني قد سمعته منذ وقت مضى، الآن صرت على يقين من أنني لم أحسن التعامل معها، لأني انشغلت بك وبشئوني الخاصة، وتجاهلت ميولها ورغباتها، وكأن الحياة بالنسبة لمن هم في مثل سنها هي طعام وشراب وحسب، أمي ليست من هذا النوع، لقد أمضت حياتها كنجمة يدور في فلكها الجميع، لكن لا بأس، سأحاول أن أنسيها مرارة الأيام الماضية..

ولجت غرفة أمها، كانت تتهيأ للخروج، بدت لها أكثر نضارة وقد اختفت خصلات شعرها الشيباء، احتضنتها وعيناها تمسح سطوح الأثاث الذي يشغل حيز الغرفة..

لمحت عملات ورقية ملقاة فوق ملاءة السرير، وضعت على غير ما ترتيب، أطالت النظر إليها، قالت محدثة نفسها:

لم يخطر لي يوما أن أجدك على هذه الحال، أعرف أني أخطأت كثيرا حين تركتك دون نقود، وأعرف أنك تصابين بالاكتئاب حين تعانين من الإفلاس، لكن كيف استطعت يا أمي أن تحصلي على المال بهذه الوسيلة غير الـ....

وقبل أن تنهمر من عينيها الدموع غادرت الغرفة دون أن تتحدث إلى والدتها، لم تلتفت أمها إليها لأنها كانت هي الأخرى مستغرقة في تفكير عميق..

أسرعت إلى زوجها، كان يوشك على مغادرة البيت..

- أنتظر.. فسوف آتي معك..

- إلى أين؟

- أمي تتأهب للخروج.. أريد أن أراها كما رأيتها أنت..

- وما الداعي لذلك؟ لماذا تعرضين نفسك لموقف مؤلم كهذا؟

- أريد أن أتاكد بنفسي..

- ألا تثقين بي؟

- بل أثق، لكنني أريد أن أشاهدها بعيني..

- لا أنصحك بذلك..

- أعرف أنك تشفق علي.. لا تخش شيئا سوف أتمالك نفسي..

خرجت أمها فيما كانا يتتبعانها دون أن تلحظ ذلك، استقلت حافلة النقل العام، وعند منطقة بعينها، هبطت من الحافلة قاصدة مكان ما، ثم سلكت زقاقا ضيقا في محاولة منها لاختصار الطريق..

تحرر الزوجان من السيارة وراحا يغذان السير بغية اللحاق بها، اتجهت صوب شارع مكتظ، وكان الزوج يحاول جاهداً تهدأة زوجته المضطربة، وقبل الوصول إلى قمة الشارع استوقفها راجيا إياها عدم التقدم خطوة أخرى إلى الأمام، فيما وقفت أمها على الناصية مادة يدها طالبة الإحسان..



ليست للبيع

(لا يفسد إلا من هو قابل لأن يفسد)

(جراهام جرين)

تشدني إليها، كلما مررت بها، تلك اللافتة المعلقة على جدار ضخم يسور أرض فضاء، أطرح الأسئلة ذاتها عند كل وقفة..

لماذا يرفع صاحب الأرض هذه اللافتة، أي معنى يريد أن يوصل من خلالها أم إنها لافتة عادية وحسب؟! على قماش أبيض وباللون الأحمر والخط العريض، كتبت عبارة "الأرض ليست للبيع".

تستفزني هذه العبارة، فأقف عندها متفكرة، لماذا هي ليست للبيع؟

ربما لأنها الشيء الوحيد الذي يمتلكه صاحبها، أو من المحتمل أن يكون قد مل أولئك الذين يترددون عليه لشرائها، فقرر أن يقطع دابر مسعاهم..

نسيت اللافتة والغاية من وجودها، لأنني غيرت خط سيري، وصرت أمر بعمارات شاهقة تلتصق الواحدة منها بالأخرى، وكأن الأرض ضاقت بسكانها، أما اللافتات والإعلانات الضوئية، فكلها

تروج لسلعة ما، أو منتج جديد، كما أنني تعودت أن أسقط من رأسي أية فكرة قبل التوجه إلى عملي، فطبيعته تقتضي خلوه من أية شواغل.

في الأسبوع الماضي، حضرت إلى غرفتي زميلة قديمة، أفضت إليّ بسر خطير، قالت إن رئيسها في العمل أوعز لها أن تتلاعب بالأرقام الضريبية لأحد الأشخاص، مقابل مبلغ من المال، لم توافق بالطبع، وما أن أنهت حديثها، حتى قفزت أمامي، وعلى الفور تلك اللافتة: "ذممنا ليست للبيع".

لماذا يظن الذين يبيعون ضمائرهم أن الجميع بإمكانهم فعل ذلك؟!

آلمتني تلك الحالة وظللت أفكر فيها، فربما يجد ذلك المدير الذي باع ضميره وسيلة أخرى، أو شخصا آخر، بإمكانه أن يبيع ذمته بثمن بخس، ربما.. ولم لا.

لم ينته الأمر عند هذا الحد.. فمنذ بضعة أيام، ذهبت لزيارة جارتي التي انقطعت عن زيارتي منذ أسبوع، وجدتها مشغولة بإعداد الشطائر والعصائر استعدادا لزيارة ضيف مهم..

أخبرتني وهي منهمكة في العمل، أن شقيقتها التي تخرجت في إحدى الجامعات، قد جاءها عريس، وقبل أن أكمل كلمة مبروك،

فوجئت بالبنت تندفع راكضة خارج المطبخ.. تبعتها لأستطلع الأمر، قالت وهي تنشج:

– إن ذلك الرجل الذي يسمونه عريسا، ليس إلا شبح رجل في الستين، كل ميزته، إنه يمتلك أطيانا وعمارات، وأنه يريد أن يشتري شبابها بما يمتلك..

لست أدري لماذا تتابعت الأحداث متلاحقة وعلى هذا النحو هذه الأيام، صباح أمس، كنت أقف على الرصيف في انتظار الباص الذي سيقلني إلى عملي..

ثمة شخص راح يتسلل من ورائي كلص، أفزعني.. ابتعد قليلا.. أخذ موقعا في الاتجاه الذي أرصد من خلاله قدوم الباص.. راح يحرك كفيه بحركات مبهمة.. لم أعره اهتماما، لكنه اقترب، استل من جيبه رزمة نقود، ثم راح يعد أوراقها بخفة متمرس..

رفرفت تلك اللافتة أمام عيني مرة أخرى.. وثبت نحوه.. وفي حركة مباغتة وغير متوقعة بالنسبة له، لطمته على خده الأيمن صارخة:

– جسدي ليس للبيع أيها الوغد..

صعدت إلى الباص، وأنا أفكر في المغزى الذي أراده ذلك الرجل من رفع تلك اللافتة، ثم رحت أبحث عن وسيلة تحمينا من تطاول المفسدين.

تطلعت إلى الشارع، كان مزدحما كالمعتاد.. تراءى لي أن بعض المارة يخفون بين طيات ملابسهم لافتات صغيرة مكتوب عليها "لسنا للبيع"..

طرفا خيط مجنون

لا أزعم أني أعرفه.. هو أيضا لا يعرفني.. لم يجمعني به مكان قط.. لكن ربما جمعني به الزمان، أي زمان.. من يدري؟!

تعودت أن أرى الأشخاص بعينين ثاقبتين تخترقان لب الروح، أما أجسادهم فلا تعنيني على الإطلاق، باستثناء ذلك الجزء الذي يعكس ما تكتنفه أرواحهم من لوعة وأسرار..

حتي أولئك الذين تفتقر علاقتي بهم إلى وجود قنوات مشتركة تجمع بيني وبينهم، أحاول الغوص إلى أعماقهم باحثة عن الأسباب التي تحول بيني وبين التفاهم معهم، كل هذا مألوف لدي، لكن غير المألوف أن أرتبط بعلاقة روحية مع شخص لا أعرفه..

تصوروا معي رجلا عمله الرسم بالكلمات، يقطن بعيدا، فكيف سأجده ومن يكون؟!

منذ سنوات لا أعرف أمدها، كنت أقلب صفحات إحدى المجلات فاستوقفتني صورة رجل، إلى تلك اللحظة لم أكن أعرف اسمه ولا إلى أي مجتمع ينتمي..

حدقت في الوجه مليا.. في العينين الغامضتين.. يا إلهي، أية أسرار تحملان، أحزان الدنيا تستقر فيهما.. لماذا.. لماذا؟ كنت أتساءل ومازلت..

على وجهه الأسمر ارتسمت ابتسامة شفيفة، قد تبدو لبعضهم ابتسامة لكنها بالنسبة إلي لم تعبر إلا عن ألم دفين، والخطوط على الجبين، لست أدري لماذا رأيتها وكأنني لم أرها كل يوم على جباه الذين أعرفهم، تساءلت: أهي بصمة السنين؟ أم أنها جراحات الماضي والحاضر معا؟! بهذه الملامح كان يبدو كمن ينوء تحت وطأة حياة لا يرغب فيها..

إحساس مبهم راح يغزو قلبي كلما أبحرت في عينيه المتشبثتين بي أبدا، شعور جامح استبد بي وأحالني إلي كرة تتأرجح بين ماض وحاضر:

هل التقيته في زمن غابر أم إن روحينا قد تجسدتا في عوالم أخرى لا ندركها الآن؟! وأسئلة أخرى طرحتها ولم أجد لها جوابا..

حين يعجز الوعي عن إيجاد تفسير منطقي لما تجيش به الروح يتقلص استيعابه ويسلم للمجهول، لكنني لم أسلم أبدا.. لأني لم أنه الحوار مع نفسي على الأقل..

من السطور التي أحاطت بصورته عرفت اسمه، وعرفت أيضا اسم أحد مؤلفاته، فهو رسام بارع، يرسم بالكلمات أناسا ومدنا، وأنا أهوى الرسم بالكلمات..

قرأت مؤلفاته بشوق بالغ، بحثت عن المزيد، حاولت أن أجد سبيلا للقائه لكني لم أنجح، لماذا اهتممت به دون سواه؟ وأنا أرى كل يوم العشرات من الوجوه على صفحات الصحف والمجلات.. في الشوارع وعلى شاشات التلفزيون، أية متاهة تلفني؟ أي جواب لأي سؤال أريد؟ بل ماذا أريد؟!

إحساس مبهم يتملكني كلما نظرت إلى صورته.. يشعل الرغبة في اقتحام تلك المنطقة المحظورة من الذاكرة، فتتولد لدي قناعة مطلقة بأنني عشت معه حياة كاملة، وأن هذا الرجل القادم من قلب الأحزان يعرفني كما أعرفه أنا..

ثمة شئ يربط بيني وبينه، شيئ لا يتحدد بزمان أو بمكان، شيء لا يخضع لحكم المعقول أو اللامعقول..

في المرات العديدة التي أجريت فيها حوارات مع نفسي توصلت إلى أنه يمسك طرف الخيط الذي أمسكه بيدي، لذا لابد أن ألقاه، هكذا قررت أن أترك هذا الخيار للزمن..

بعد ثلاث سنوات أو أكثر وقبل منتصف الليل بقليل، رن جرس الهاتف، صديق قديم دعاني لحضور احتفالية تقام لتكريم مجموعة من زملائه، كدت أرفض، لكنني وافقت في النهاية..

بهرني المكان للوهلة الأولى، لقد زرته في مرات سابقات وكان يفتقر لتنظيم كهذا، أجلت النظر في القاعة دونما تركيز.. اتخذت مقعدا في صف أخير، ثم رحت أصغي بانتباه، ثمة رجل أعلن بدء الاحتفاء بزملائه المبدعين ثم راح يتلو الأسماء فيما راح آخر يناوله مغلفا يحوي جائزة نقدية..

عند اسم بعينه ضجت القاعة بالتصفيق، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيته واقفا أمامي وجها لوجه، اهتزت جميع أجزائي.. كتمت صرخة لو قدر لها أن تخرج لاهتزت لها جدران القاعة، انثالت الدموع من عيني دونما إرادة.. أطبق السكون على المكان ولم أعد أرى سوى ذلك الرجل الذي أشعل ذاكرتي وأوقعني في فخ التساؤل من جديد.. ها هو يجلس أمامي بهدوء.. يلهب دمي.. ينفخ في النار التي كنت أظنها قد خبت، بهدوء رحت أختلس النظر إليه، كل شيئ فيه يثير دخيلتي.. كل لحظة تؤكد قناعاتي..

لم أنتبه إلى أن القاعة قد أفرغت روادها، خرجت فزعة، ثمة تجمعات تنتشر هنا وهناك، كان يتوسط أحد هذه التجمعات..

في زاوية غير منظورة تواريت ثم رحت أمعن النظر إليه، كان يحدق في وجه محدثه وكأنه يريد أن يستشف حقيقة ما، هذه إحدى عاداته، فهو لا يعني بالكلمات التي تتفوه بها الشفاه بقدر اهتمامه بمكنونات الآخرين، لأنه يمتلك وسيلة استقراء لما يدور في الأذهان، وقبل أن يجيب على محدثه رفع كمي قميصه على نحو غير إرادي، وهذه عادة أخرى من عاداته، فكشف عن وشم داكن يتوسط ساعده الأيمن، وشمته به الحياة قبل ولادته، لم أصب بالذهول، لأنني لست بحاجة إلى برهان..

التحقت بأصدقائي على الفور.. طلبت من أحدهم تقديمي إليه، تصوروا.. أني أطلب وساطة للتحدث إليه!!

اقتربت منه بوجل.. اصطنعت الهدوء، قدمني وسيطي كمعجبة، هل أنا كذلك؟

امتدت يدي المرتعشة لتصافح يده المقدسة، هذه اللمسة.. حرارة اليد.. نعومتها، ليست غريبة علي، أقسم على ذلك..

لم أسمح للصمت أن يستبد بي، بادرت بالقول:

– أنا سعيدة جدا بلقائك..

– أشكرك..

سألته في محاولة لخلق حوار:

– أراك لا تحضر في مثل هذه المناسبات..

قال وعيناه تصطدمان بسقف الممر الذي يحتوينا:

– بعد المسافة وعدم الرغبة، يحولان بيني وبين المجيئ

وما كدت أنهي سؤالا حتى أبدأ بسؤال جديد، كنت أتعمد إطالة الحديث معه.. لقد بدا لي قلقا، محرجا، حتى أنه تحاشى النظر في عيني، وكأنه يتوخى حقيقة بعينها، تسلل أحدهم مقحما نفسه بيننا، ثم راح يتحدث معه بإسهاب، انضم الجمع إليّ.. تحلقوا حولي في دائرة مغلقة.. استمعت لأحاديثهم دونما تركيز فلقد حسمت أمرا مع نفسي.. تملصت منهم بصعوبة.. بحثت عنه في كل مكان، اشتعلت غيظا.. كررت المحاولة عدة مرات لكني لم أجده..

كنت سأواجهه.. كلمة واحدة منه كانت ستكفي لمنحي الراحة والاستقرار، لست أدري لماذا جرت الأمور على نحو لا أتمناه!

ليتني أستطيع أن أخترق رؤوسكم لأعرف بماذا تفكرون، ماذا تقولون عني الآن؟ هل تتهمونني بالهلوسة والجنون، أم أنكم تتعاطفون معي؟ لأنني وقعت فريسة لحياة عشقت غموضها الأزلي إلى حد الجنون، وإذا ما سقط أحدنا في متاهاتها أخرجت لسانها لتغيظه بابتهاج..

ليقل كل منكم ما يشاء، لأنني على يقين بأنكم إذا ما غصتم في أعماقكم فسوف تخرجون بما لم تحسبوا له يوما أي حساب..

لست مستاءة.. فقد تتاح لي معه فرصة أخرى، وقد أفقأ عين الزمن الماجن يوما ما، فطرف الخيط مازال بيده وبيدي الطرف الآخر، والخيط لم ينقطع بعد..

عودة إلى المستحيل

كنت أهبط سلالم أحد الفنادق، وبخطى وئيدة، وفيما وقفت لأسترد أنفاسي.. رأيته.

كان يهم بصعود السلم، نظرت إليه طويلا.. كان كما عهدته.. وسيما.. متألقا.. تكسو وجهه تلك الحمرة الرائقة التي تزداد كلما ازدادت انفعالاته..

كانت عيناه الماطرتان بحزن غامض، تخترقان لب قلبي..

هبطت السلم بحيوية شابة.. تعانقت أيدينا بلهفة عارمة، واستبد بنا الاضطراب.. اقتادني إلى طاولة نائية تقبع في ركن هادئ، تبادلنا النظرات الملتاعة بشوق بالغ، ولشد ما سحرتني تلك الالتماعة التي تتوهج في عينيه محدثة في نفسي اضطرابات شتى..

تناول يدي ثم راح يلثمها بنهم، فسرى الخور في جسدي، وغرقنا معا في عالم ساحر غير مرئي..

لست أدري كم من الوقت أمضينا في ذلك الصمت الملتهب، لكنني كنت أشعر به يجتاح كياني كله..

اقـتحم ملكوتنـا فجـأة صـوت نـادل أهـوج، فصـحونا بلـذة مضطربة..

مـرت دقـائق صـمت ثقيلـة.. ثمـة هـاجس لا أعـرف كنهـه كـان يضنيني، لكنني كنت أسعى إلى طرد كل ما من شأنه أن يعكر صفو ذلك اللقاء غير المرتقب..

عـن سـبب حزنـي سـألني.. لـم أجبـه، لأن لقاءنـا قـد أثـار فـي نفسي شجونا كثيرة..

تنـاول قهوتـه بتـوتر، ومـا أن انتهـى حتـى بـادرني بسـؤال لـم أتوقعه..

– لماذا تخليت عني؟

شعرت حينها بدوار في رأسي وانتابتني رعدة شملت كل خلية في جسدي.. بصوت تخنقه عبرات مكبوتة:

– لم أتخل عنك..

– نعم تخليت..

صمتُّ ولم أحر جوابا، ضغط على يدي بقوة.. فاجأني:

– هل أغرمت بأحد؟

لم يكن بوسعي حينذاك إلا أن أنفجر بالبكاء، كان ينظر إلي بعينين متقدتين، لا أعرف لماذا تلاشى غضبه بتلك السرعة التي لم أعهدها فيه.. أهي الشفقة، أم الغفران؟ أم ماذا؟ لست أدري!!

قال بصوت متهدج:

– افتقدتك كثيرا، وتألمت من أجلك كثيرا، كنت أبكي أحيانا.. وأحيانا أشعر أنني طفل ينتظر عودة أمه الرءوم ليغفو تحت جناحيها، وكثيرا ما كنت أطوف الشوارع على غير هدى، باحثا عنك..

لست أدري ما الذي قلته في تلك اللحظات المشحونة بالاضطراب، لكنني رمقته بنظرة والهة تنم عن الاعتذار..

تسللت يده لتداعب خصلات شعري بحنان، حدقت في وجهه، كان مضطرماً وملامحه تشي بما يختلج في أعماقه من رغبات..

لا أعرف لماذا هربت بنظراتي حينذاك وتركتها تسبح في المدى الرحب.

كان الليل يهبط محتضنا الأرض بلهفة عاشق أزلي، كنت أفكر في أن أرتمي بين ذراعيه وأبكي.. أبكي طويلا، أو أركع أمامه طالبة الغفران، لولا أننا في مكان عام..

في لحظة بدا لي كل شئ ممكنا ويسيراً تأملت فكرة ارتباطي به فوجدتها ممكنة..

قلت لنفسي بتصميم:

– سأقتل الضجر وأغتال الوحدة في وضح النهار..

وبينما كنت أغرق في التأملات، اخترقت الأسماع أصوات زغاريد انطلقت من موكب عرس..

أجفلت.. أجفل هو أيضاً، وفجأة انفرطت بيننا تفاصيل سنوات عشرين.. قال بعد أن أفرغ كل ما في ذهنه من تساؤلات:

– عشرون عاما وأنا أنتظر لماذا جئت الآن؟

رمقته بنظرة مستفهمة، فأردف يقول:

– يبدو أنك جئت بعد فوات الأوان لتنكئي جرحا التأم بعد عناء، وإلا فيم تفسرين هذه المصادفة العجيبة؟

– أية مصادفة؟

– حضرت اليوم لكي ألقي نظرة أخيرة على القاعة التي سيقام فيها حفل زفافي يوم غد.

أحدثت كلماته زلزالا داخل نفسي،كان أملي يتلاشى كما يزول قصر من الرمال تحت عارم الأمواج، وتذكرت أني أطفأت منذ يومين أربعين شمعة..

أدركت أني كنت أعيش في وهم منذ التقيته، حاولت أن أبارك له، لكن الكلمات ماتت في فمي..

رسمت على شفتي ابتسامة مصطنعة.. قلت بعد تردد:

– أنا أيضا حضرت اليوم كي أحجز القاعة التي سيقام فيها حفل زفاف ابنتي بعد أيام..

تقلصت عضلات وجهه.. تلألأ في عينيه بريق دموع.. قال بصوت شاحب:

– هل لي أن أراك ثانية؟

كان من العبث أن أعده بشيئ، قلت والألم يعتصر قلبي:

– من يدري قد نلتقي ذات يوم..

وخرجت تتلقفني نسمة خريف باردة.. وكان يحاول أن يتبعني.. أنا متأكدة من ذلك.

تلك هي اللعبة

ثم كرر المحاولة.. لم ييأس.. لم يكل.. استدرجني إلى ملعبه بحكمة أعوامه الأربعين، فصار كلانا نسيجا متميزا للعبة مبتكرة لم تتوضح نتائجها إلا عند الوصول إلى النقطة التي انطلقنا منها..

كان اسمه يتردد كنغمة خافتة لم تسترع انتباهي، رغم الصخب الذي أحدثته في مسامع الآخرين، لم يهمني أمره ذات يوم، وتكرار ترديد اسمه لم يعن لي سوى أنه رجل كما باقي الرجال يلهث وراء النزوات..

ربما أكون متحاملة على بعض الرجال، وهذا لم يأت من فراغ، بل نتيجة لاتفاقهم غير المعلن على الاستهانة بكيان المرأة وطاقاتها، والتعامل معها كمحض جسد لا غير، وهذا ما أوصلني إلى هذه الحالة من الاستياء والنفور..

منذ وقت ليس بالقريب، صرت أدرك أن التوحد مع الذات يمنح المرأة قوة مزدوجة تمكنها من التصدي للمخاطر التي تتعقبها بإصرار، وأحد تلك المخاطر، هي الشباك المنصوبة التي أعدت لها بعناية كي تنزلق قدمها إليها في وضح النهار..

قد أبدو حذرة.. متأهبة للانقضاض على من تسول له نفسه التلاعب بعواطفي أو الاستهانة بكياني، بتوحشي، أنا كذلك بالفعل، ليس لأنني أكتشفت ذاتي فتوحدت معه وحسب، بل لأنني وقعت أكثر من مرة في تلك الفخاخ، فاكتسبت مناعة وحصانة ضد صانعيها

ليس عسيرا على امرأة أربعينية مثلي أن تعيش في منأى عن عالم الرجال، لأنني قررت أن أكتفي بانكساراتي، وأن أترفع وأسمو فوق كل الغرائز التي تجعلني أقل شأنا مما أنا عليه، واذا ما صرخت مشاعري جزعة من الخواء الذي يعتريها ذكرتها بما آلت إليه جراء اندفاعها من جانب، وعدم نفاذ بصيرتي من جانب آخر، فتستكين وتنام في خنوع..

هكذا دربت نفسي وأجبرتها على البقاء وحيدة، بعيدة، إلى أن... إلى أن ماذا؟ تلك هي البداية..

ظهر بكل عنفوانه.. بشموخه وجبروته، رافعا راية الحب، ضغط على مشاعري.. ضغط.. ضغط.. ضغط، دون جدوى

لم يرني سوى مرة واحدة، وهل تكفي تلك المرة لإصابته بهذا الوله الجنوني الذي يدعيه؟!

أغلقت عليه كل المنافذ إلا واحدا تمكن أن يتسلل من خلاله إلي، أجرى معي عدة مكالمات ولم أستجب، ظل يصر وظللت

أرفض، ألقى علي سمعي كماً من الكلمات التي يرق لها قلب الحجر، لكنني قاتلت مشاعري بضراوة، مما دفعه إلى تغيير استراتيجيته..

– أن تتسربي من يدي كما الماء فهذا أمر مستحيل، لأنني لا أنوي التفريط فيك، حتي لو اقتضى الأمر أن أحارب الدنيا من أجلك

– على رسلك.. أنت لم ترني إلا مرة واحدة!

– وما المانع أن أراك ثانية وثالثة؟

– آه.. تراني مرات ومرات، فتتعمق العلاقة ثم تتجرأ وتطلب ما ليس لك به حق، أليس كذلك؟

– ماذا تقصدين؟

– أظنك فهمت، فلا تدعي الأخلاق.

– أنت تظلمينني والله، وسيأتي يوما أثبت لك حسن نيتي..

– أرجوك دعني وشأني..

– انتظري.. سأطرح عليك فكرة..

– فكرة ؟!

– بما أنك لا تعرفينني بالقدر الكافي مما يجعلك تشكين في أمري وتوجهين لي الاتهامات، ما رأيك في أن نلعب لعبة، نتعرف من خلالها على بعضنا، بأسلوب جديد غير مألوف.

– لم أفهم شيئا مما ذكرت، ثم أية لعبة هذه التي تريدني أن ألعبها معك؟

ـ إنها لعبة من نوعٍ خاص، أسلوب جديد في التعامل مع الحياة، أليس للحياة قانون مفروض علينا وزمن يدور رغما عنا، نحن سنقلب الموازين ونضع قانونا خاصا بنا، لفترة معلومة ومحددة.

– وما الهدف من ذلك؟

– الهدف هو كما قلت لك، أن يتعرف كل منا على الآخر، بطريقة مختلفة.

– كيف؟

– أنت ترفضينني لأن المرأة ذات الأعوام الأربعين التي تمثلينها هي التي قررت ذلك، كونها تخاف التجربة، تخشى الفشل في هذه المرحلة من العمر، لكن الطفلة التي تسكنك لها رأي آخر بالتأكيد.

– أنا لا أفهمك.

– في داخل كل منا شخصيتيان متناقضتان، إحداهما عاقلة متزنة، والأخرى مندفعة مليئة بالحيوية لا تخضع للقوانين التي تعتمدها الأولى، والحقيقة ان اللعبة لا تعتمد علينا، وإنما على طفلينا.

– أنت لا تطرح فكرة.. أنت تطرح لغزا!!

– ركزي معي، نحن الآن في السنة الرابعة بعد الألفين، عمر كل منا أربعون عاما، من هنا سوف ننطلق، لكن في الاتجاه المعاكس، أي أننا سنعود بالزمن إلى الوراء، وسوف نتوقف عند العام ألف وتسعمائة وأربعة وسبعون، عندها سيكون عمر كل منا عشر سنوات، هنا سيطلق كل واحد منا الطفل الذي بداخله، وسوف ندع الطفلين يتعرفان علي بعضهما بأسلوبهما الخاص ودون تدخل منا، سأنسحب أنا، وستنسحبين أنت أيضا، ومن هذه النقطة بالتحديد سينطلق الاثنان إلى الأمام هذه المرة، وكل يوم يمر عليهما يعد سنة، وبعد مرور ثلاثين يوماً، سيكونان قد أتما سنواتهما الأربعين.

حينذاك سوف تكتمل اللعبة وسيكون القرار لك، أرجو أن تضعي في عين الاعتبار أن مصيرنا نحن الأربعة سيكون مرهونا بإشارة منك، ها.. ما رأيك بالفكرة؟

– لا بأس بها، لكنني أريد مزيدا من التوضيح.

– في اللحظة التي سنطلق العنان فيها للطفلين لا يحق لنا الظهور، وإذا تطلب الأمر ذلك فلا ينبغي لأي منا أن يأخذ موقعا بديلا للطفل في أية حال من الأحوال، ولكن بإمكان كل منا أن يكون بمثابة ولي أمر للطفل ليس إلا، أريد أن أذكرك بأن قانون اللعبة لا يسمح بالانسحاب، وأن هنالك وعد شرف لتوثيق الاتفاق، فهل أنت مستعدة؟

– مستعدة.

– فلنردد القسم.

تحمست للفكرة.. انبهرت بها.. أعجبتني، رددت القسم.. أطلقت الفتاة ذات الأعوام العشر التي تغفو في داخلي وأطلق هو فتاه.

لماذا قبلت بالفكرة؟ أسباب كثيرة جعلتني أتقبلها، لأنه أيقظ بفكرته الطفلة التي ترقد في داخلي، جعلها تقفز فرحة بالعودة إلى الماضي، وربما تكون هي التي وافقت على الفكرة ولست أنا، كما أن هنالك سبباً آخر، هو رغبتي في تحدي قانون الزمن والحياة ولو بلعبة وهمية.

انطلق الاثنان في مباراة جادة مع الزمن، عليهما أن يدركا الهدف قبل انتهاء الوقت المقرر، رسمت الفتاة ملامح واضحة لشخصية فتاها، استهوتها اللعبة.. استغرقتها.. منحتها كل وقتها..

لم يبرح أحدهما الآخر إلا في ساعات الليل المتأخرة، ثم يواصلان الحديث عبر الهاتف، لم ينالا من النوم إلا القسط اليسير، كانت أيامهما زاخرة بالأحداث..

قاد كل منهما الآخر إلى الأماكن التي شهدت تاريخهما الطفولي، تقمصا الحالة التي كانا عليها إبان تلك الفترة، عاشا المرحلة كما ينبغي، متناسين أنهما يدوران في فلك لعبة وهمية ليس إلا.

لم تكن أيامهما كلها على ما يرام، فقد دارت مشاجرات ومعارك –كما أي طفلين – تخاصما.. تصالحا.. توعد كل منهما الآخر بالمقاطعة وفك الارتباط.

كادت اللعبة أن تنتهي حين دخل الفتى مرحلة المراهقة، وذلك بسبب تهوره وسخونة مشاعره، فقد حاول تقبيل الفتاة، لكنها صفعته ثم شكته لولي أمره، الذي تعهد لها بعدم تكرار تلك الفعلة المشينة.

كل يوم يمر يعد مرحلة جديدة في حياتهما، كانا يكبران بحكم الاتفاق، أما مشاعرهما فكانت تكبر بحكم التفاعل والتعايش.

ماذا حدث، أتراني أحببته؟ أنا كذلك بالفعل، لقد منحني فرصة لاستعادة طفولتي التي لم أعشها كما عاشها أقراني، لأني تزوجت

قبل أن تكتمل ملامح أنوثتي، كثيرا ما شعرت بالانتهاك، فقد انتهكت حرمة جسدي دون إرادة مني، وإنما بإرادة أهلي الذين أرغموني علة الزواج من رجل لم أكن أعرف عنه سوى اسمه، وعندما رحل صار جسدي هو المملكة التي لا يحق لأحد الاقتراب منها.

دارت عجلة الزمن كعادتها سريعا، كبرنا بسرعة أيضا، كنا نقتات على رحيق الحب الروحي، وقبل الوصول إلى النقطة التي انطلقنا منها، استعادت الفتاة وعيها الأربعيني، فتمردت على اللعبة.. عليه.. على نفسها.. على العالم كله.

ما الذي دهاني؟ كيف تمكن هذا الرجل أن يخترق حياتي.. أن يخترقني بلعبة وهمية سلبتني وعيي وإرادتي، كان ينبغي أن أنتبه إلى خطورة اللعبة وتداعياتها، لقد أعادني بلعبته هذه إلى طفلة بلا عقل، بلا بصيرة، حتى يتمكن مني.. من جسدي.. جسدي الذي لن أسمح أن يمتلكه أحد سواي.

– أنت ماكر.

– أنت ظالمة.

– أشهد بأنك نجحت بإيهامي وإيقاعي في الفخ الذي حرصت ألا أقع فيه.

- أي فخ هذا الذي تتحدثين عنه؟ أمازلت تظنين بأنني محض رجل تافه لا تحركه سوى غرائزه؟.. لا والله أنا لست كذلك، ثم إنني أحببتك بكل تفاصيلك، أحببت جوهرك، كيانك، عقلك، الطفلة التي في داخلك، حتى جسدك أحببته لأنه يحوي كل ما ذكرته.

- اسكت أرجوك.

- لماذا تخافين على جسدك إلى هذا الحد؟ لماذا تفرضين عليه القيود؟ ألست امرأة؟

- ابتعد عني أرجوك.

حقا.. ألست امرأة؟ أما آن الأوان للإذعان إلى رغباتي المكبوتة، كثيرا ما شعرت بمساماتي تزفر نارا لمجرد أني أجلس بالقرب منه، لماذا أصعب الأمور؟ لماذا أعقدها رغم أنه طلبني للزواج.. طغى غضبي على كل ما شعرت به حياله، قررت الهرب، واكتفيت بهذا القدر من التجربة.

جاءني صوته محزونا، راجيا، طالبا الرحمة والكف عن العناد، بكى.. توسل.. اتهمني بالقسوة، لكنني صممت أذنيَّ وأغلقت في وجهه كل الأبواب، وفي آخر مكالمة أجراها معي ذكرته بأن القرار أصبح في يدي الآن كما هو متفق عليه، لأن اللعبة قد انتهت بالفعل، وعليه أن ينسحب كما انسحبت أنا، لكنه لم يبك هذه

المرة، لم يتوسل، بل طلب مني إطلاق سراح الطفلة التي أحبته ثم اقترح إعادة اللعبة من جديد.

اطمئن

ليس وهماً.. لم يكن وهماً، بل هو الحقيقة التي سعيت إليها منذ ولادتي. ها هو ذا يسكنني.. ينام تحت جلدي، في دهاليز الروح، بين طيات القلب.. أكاد أجزم بأنني خلقت فقط من أجل أن أحتضن حبه.. حبه الذي صار أشبه بجرح لا يندمل..

قبل كل شيء لابد أن أعترف بأنني وعلى مدى عمري الذي تجاوز الثلاثين بأعوام، توهمت الحب مرتين: مرة في مرحلة الصبا حين أحببت ابن الجيران، وأخرى مع زوجي، أعني الرجل الذي كان زوجي ثم غادرني ذلك الوهم دونما رجعة..

أعترف أيضا بأنني كثيرا ما كنت أتوق لوجود رجل يحتويني بهوسي وجنوني، يفجر طاقاتي.. يمتص رحيقي إلى آخر قطرة، لكنني أجد نفسي في النهاية دائمة البحث عن شخص لا وجود له في المحيط الذي يضمني رغم أن قدميَّ تتعثران بعشرات الرجال كل يوم، ولست أدري لماذا يظن البعض منهم بأنهم يحملون الرجولة في جيوبهم وخلف أزرار ملابسهم، فيما يصارع آخرون الزمن من أجل غد مشرق..

حالمة أنا يتوسطني بركان عاطفة خامد يتوهج أحيانا ليعلن أنه في انتظار إشارة مني ليلقي بحممه على ذلك العاشق الذي طال انتظاره.. موعودة أنا بالمستحيل، فالأيام لا تكف عن ملاحقتي.. محاربتي.. هزيمتي، لكنني وربما هي المرة الأولى التي تمكنت فيها أن أهزم الأيام، نعم لقد انتصرت عليها لحظة لقائي به..

قبل أن أراه كانت الأرض تميد تحت أقدام العالم بأسره، ولأن الواقع أمر مفروض علينا، يتعايش معنا يدخل غرف نومنا.. يتسلل إلى أحلامنا، كان لابد أن أحلم برجل من نوع خاص، رجل يحمل سمات الفرسان.

في تلك الأيام المشحونة بالغضب العارم لشعوب العالم، التقيته، أمريكا تدق طبول الحرب على العراق بصخب أرعن.. العراق يحلف برغيف الخبز الذي حرمه الأعداء على أهله أنه لا يمتلك أسلحة دمار.. أمريكا تقسم بأيمانات إسرائيل بأنه يمتلك دمارا شاملا، ولابد أن تجرده من أسلحته ومن أرواح شعبه إن لزم الأمر.

لست أدري من أين خرج هذا الرجل؟ من عبق التاريخ.. من عباءات الرسل.. من المستحيل الذي يطاردني؟!

فتحت باب مكتبة تقع بجوار المسجد الذي يصلي فيه، سلمت على صاحبيها، رجل طيب وامرأة فاضلة، عرفتهما منذ فترة ثم صرت أتردد عليها لنقضي الوقت في أحاديث متنوعة، لم أصادفه من قبل حتى أنني لم أخصه بالتحية، لكنني التفت إليه بتلقائية شديدة، عرفته من ملامحه المزروعة في ذاكرتي منذ الأزل، ترنح قلبي.. تعالى وجيبه.. يا إلهي أهكذا تكون المفاجآت؟!

رجل فارع، لم ينجح بياض لحيته في إخفاء حقيقة عمره الذي لا يتجاوز الخامسة والأربعين، ولا أعرف السر الذي أشعل شعر ذقنه بالشيب إلى هذا الحد رغم أنه لا يُعد كبيرا، كل شيئ فيه مبهر: شموخه، وقاره، عيناه اللتان أزهقتا روحي ما إن نظرت إليهما.. أية محرقة نصبت لي أيها القدر؟

من اللحظات الأولى وأنا على يقين بأن حبي له سوف يُحكم عليه بالسجن المؤبد داخل جدران قلبي، وليكن، فما فائدة أن نحيا دون أن نعشق، وما فائدة أن نعشق دون أن نلتهب؟! هذه القسوة التي فرضتها علي الأيام هي متعتي، لكأنني خلقت لأحترق لأذوب، فلا يتبقى مني سوى دخان يحمل عطره.. عطره الذي تسرب إلى جلدي ذات يوم..

مهمومة أيامنا مثلنا، الخوف يجلدنا في كل لحظة، الأرض تغلي.. السماء تحتج، وما بين الأرض والسماء أصوات تدعو.. تتضرع.. تتسول السلام ممن لا يعرف معنى للسلام..

في هذا الخضم الهائل من التوتر والحماس، كانت الطريق مفتوحة أمامي للخوض معه في أحاديث قد لا تنتهي، ورغم أنني استجمعت قواي لأبدو هادئة، إلا أنني تبعثرت أمامه وعجزت عن لملمة شتاتي فهربت، ثم عدت عازمة على انتزاع وعد منه بلقاء آخر.

لقد حضر بالفعل.. لماذا؟ أتراه أحس بما تجيش به نفسي؟ أم أنه أتى من باب الوفاء بالوعد ليس إلا؟

مهموم هو بالأمة.. في عينيه شجون زادتني شجنا، ران بيننا صمت طويل، لم يكن طويلاً، لكنه بدا لي كذلك، لأنني استنفدت وقتا في صياغة أسئلتي، حيث إن شعورا بالضآلة تملكني، فأنا لا أجيد الحديث في الدين أو في السياسة، فكيف سأحاور رجلا مثله، لكنه وعلى الرغم من أنه بدا مجهدا، فالشياطين تحشد الدمار لمهاجمة العراق إلا أن أجوبته جاءتني على نحو هادئ وبسيط..

زنديقة أنا امتلأت باللذة وأنا أتفرس فى وجهه الطاهر.. شياطين الأرض تتراقص فى رأسي، كم وددت أن ألقي بنفسي بين

ذراعيه وليكسر بغضبه عظامي، ماذا كان سيحدث لو لفحت وجهي أنفاسه؟ أية خطيئة سأقترف؟!

بركان العواطف تفجر في داخلي.. ألقى بحممه على كل جزء من كياني، سيل كما السعير يجرفني إلى متاهات لا أعرف دروبها، ما من ثغرة في جدار هذا الرجل أتسلل منها إليه، ليس أمامي إلا الصمت وفي الصمت هلاكي..

لبست رداء الصبر، استعذبت آلامي.. اكتفيت بوجوده داخل تاريخي، حاربت نفسي.. قمعت رغباتها خوفا من أن أرتكب حماقة تفقدني إياه إلى الأبد..

صارت المكتبة هي المكان الوحيد الذي أشعر فيه بأنني على قيد الحياة، أصبح الهواء الذي نستنشقه معاً له شأن آخر في مخيلتي وداخل شعابي، ولكم تمنيت أن أتحول إلى جزيئة هوائية لتلتقطني أنفاسه ولو للحظة وليزفرني بعدها إلى الجحيم..

في الأيام التي شهدت لقاءاتنا تحطَّم الوهم الذي كان يملأ رأسي إزاء رجال مثله كنت قد التقيتهم من قبل، فتجنبتهم وكأنهم هبطوا من كوكب آخر..

لقد أزاح شيخي الستار عن كنهه، فبدا بسيطا، متواضعا، تلقائيا، غير متزمت.. يضحك، يسخر، يحب، يكره، ويبكي أحيانا إذا ما فاض به..

لماذا أحببته؟ علي أن ألتقط أنفاسي التي تقطعت وأنا أجوب المواسم والمدن باحثة عنه، أنا أعرف الجواب، الركام الذي خلفه زمن عابث في سراديب النفس ليس وحده الذي أغلق منافذ النور إلى القرار، فثمة تداعيات أخرى، الرخاء أفسد حياتي، أقام حاجزا بيني وبين عالم من المفروض أنني أنتمي إليه، لم أهتم يوماً بما يدور حولي، لم أعرف ماذا تعني كلمة انتماء، قبل أن ألتقيه كنت بحاجة إلى يد تنتشلني من السراب الذي يطوقني، كنت أبحث عن حقيقة بعدما غزت الأوهام حياتي..

حياتي؟ أية حياة تلك؟ هل أسمي ما فات من عمري حياة؟ الحياة هي أن تخرج من الظلمات إلى النور وسنيني ليل طويل حالك، هو وحده الذي أضاء عتمة أيامي، وحده من أعاد خلقي وتكويني من جديد..

لقاؤنا الأخير كان غريبا، ترك في نفسي آثارا لا تُمحى، كان متحمسا، متأهبا، بدا لي أكثر شبابا بعد أن أطلق الفارس الذي ينضوي تحت جناحيه.. بحماس قلت له:

– الحرب على الأبواب، فماذا نحن فاعلون؟

– وجودنا مسألة محسوبة على الزمان والمكان، وثمة من لا يريد أن يمر مرور الكرام دون أن يسجل ولو نقطة في تاريخ هذا الوجود..

– الشعب العربي محبط، وهو لا يكف عن الدعاء..

– الدعاء وحده لا يكفي، هنالك من يريد نصراً مجانيا دون أن يشارك أو يدفع ثمنا، ثمة مؤامرة تحاك للأمة ولا بد أن يكون لنا دور فاعل وأساسي..

– إذاً أنتم تدعون إلى الجهاد..

– أنا لا أمثل سوى نفسي..

– ستجاهد إذا..

– من أجل ذلك خلقت..

"وأنا خُلقت من أجلك"

أزمع شيخي الرحيل ليذرني أصارع تيارات شتي، أقلب صفحات عمري المعطوبة، يتملكني الخجل، ترتد كلماته كالسهام:

– لابد أن يكون لنا دور فاعل وأساسي..

أول صرخة للضمير تشبه إلى حد كبير تلك الصرخة التي يطلقها الوليد ما إن يولد..

شاركت في التظاهرات.. صرخت.. بكيت.. نددت، ذاب صوتي وسط أصوات الجموع الغاضبة، لقد بدأت أتحسس موقعي في هذا العالم..

غصة في الروح وأخرى في القلب المغرم به أبداً، ماجنة هذه الحياة، ترتب.. تخطط.. تعطي.. تمنع، تتسبب في هلاكنا بقصد ودونما قصد..

رحل شيخي دون وداع، الجدران تبكي فراقه، الأرض.. السماء.. الكون، يا إلهي ما أتعسني، هل ستستكين نفسي؟ هل ستهدأ أوجاعي؟ لماذا نذر نفسه للرحيل؟ ولم نذرت نفسي للوجع، للحرمان؟ إنها الحياة مجددا، لكنها أمعنت في إيذائي هذه المرة..

استبيحت بغداد.. سكتت أنظمة.. صرخت شعوب، وما بين الصرخة والصرخة يقف سجان ليحبس أصواتنا.. أصواتنا التي ما عادت ملكاً لنا.

ذهب شيخي ومن تطوَّع معه إلى العراق للذود عن كرامة الأمة، لكنهم سقطوا في بحر من الدماء..

سقط شيخي.. توقف نبضه عن الحياة، لكنه مازال ينبض في داخلي..

غيمة على مصيف

الشاطئ يضيق بالمصطافين، البحيرة على اتساعها تكاد تختنق من شدة الزحام، معظم الناس هرعوا إليها اتقاء لظى يوم قائض من أيام شهر تموز..

المكان يضج بالسعادة، صيحات الفرح تتصاعد من هنا وهناك، فتتشابك محدثة ضجيجا ممتعا، أطفال يلعبون بالكرة، وآخرون يضربون الماء بأيديهم.. يتناثر الرذاذ تفزع الصبية.. تنهرهم، لأنها تخشى على شعرها من البلل.. أجساد أحرقتها الشمس تتمدد في استرخاء تحت المظلات الملونة على امتداد الشاطئ.. أطفال يعتلون ظهور آبائهم، والمرح يعم المكان..

ثمة رجل في هذا العالم الصاخب غادره الفرح وتملكه الحزن والاضطراب، منذ قليل كان بصحبة ولديه، يخوضون في الماء على مقربة من الشاطئ، لكنه شعر بدوار مفاجئ فتركهما بضع ثوان، وما إن عاد حتى وجد أحدهما ولم يجد الآخر.. تلفت حوله.. أرسل بصره يطوف أنحاء البحيرة والشاطئ، لكنه لم يعثر عليه..

صاح بحنق:

– أين أخوك؟

– كان هنا بقربي، لكنني..

– لكنك ماذا؟

– ظننته معك..

كاد أن يصفعه، لكنه تمالك نفسه، ثم توغل في البحيرة وهو يتفرس في الوجوه، لبث يفكر بما سيؤول إليه حاله إذا ما أخفق في العثور على الصغير، وبينما هو يخوض في الماء، اخترق أذنيه صوت غلام في العاشرة من العمر ينادي رجلا في هلع:

– هنالك غريق..

أسرع إليه.. ضغط على كتفيه:

– أين ذلك الغريق؟

أشار الغلام إلى مكان ما في البحيرة..

– كيف عرفت؟

– دست عليه بقدمي..

غامت الدنيا في عينيه وران صمت مطبق، تقدم بضع خطوات نحو المكان الذي أشار اليه الصبي.. توقف.. لاحت له من قلب اليأس بارقة أمل:

– ربما جاع فلجأ إلى أمه!

خرج من البحيرة راكضا، تعثر أكثر من مرة، اصطحب ولده، ثم راح يتوعد ابنه الغائب، ويقسم علي أنه سوف يعاقبه بحرمانه من النزول إلى البحيرة، حتى يغادروا المصيف..

صاح وهو على بعد خطوات من البيت:

– أحمد.. أحمد.. أين أنت؟

أطلت زوجته، التي نفت وجود ابنهما، فتأكد له ما كان يخشاه.

خرجت معه للبحث عن ولدها، كان مشوشا، يفضل الموت على أن يبلغها الخبر..

أشرقت البحيرة بصخبها المعهود، مظاهر الفرح لا تزال تعم الشاطئ، يبدو أن خبر الغريق لم يتسرب بعد..

مد بصره بعيدا، ثمة جمهور من كل الأجناس يلتف في حلقة، ركض صوب التجمع، فيما ركضت زوجته في اتجاه مغاير.. توقفت..

التفتت نحوه، كان يهوي على الأرض.. أسرعت إليه.. ساعدته على النهوض، ثم أشارت إللى إحدى المظلات النائية..

كان ولدهما يفترش الأرض بصحبة فتاة صغيرة، رمقه بنظرة حادة.. تنفس بعمق ثم هرول باتجاه الغريق، وكان بعض الناس يهرولون في الاتجاه نفسه..

كانت حلقة البشر قد اتسعت، وصارت حلقات..

قال وهو يحاول أن يحشر جسده بين الجموع:

– أي أب مكلوم يقف مكاني الآن، وأية امرأة ثكلى حلت محلك يا زوجتي العزيزة..

على أعتاب العالم الآخر

ينبغي ألا نخاف من الموت إلا إذا خفنا من استبدال ثوب بثوب

(غاندي)

لست بحاجة إلى أن أمتحن ذاكرتي أو أضغط عليها لأتذكر ما حدث، فما حدث يمر أمامي كشريط سينمائي كلما أردت الرجوع إلى ذلك اليوم، بل إلى تلك الساعة الساقطة من عجلة الزمن..

لا أنكر أن ما حدث كان تجربة قاسية، خضت غمارها رغما عني، ولكن.. أليس الموت هو أقسى ما فرضه علينا الوجود؟

الموت.. ذلك القدر المبهم الرهيب، الذي يحمل بين طياته أسراراً وأعاجيب، آن له في تلك الساعة أن يتكشف أمامي ليغدو لي فيما بعد، مجرد رمز لتلك اللحظة التي ينتقل فيها المرء من حياة إلى حياة..

لم يخطر لي حين ألقيت بجسدي المريض على طاولة العمليات وناولت يدي لطبيب التخدير، بأنني سأخوض في خضم من الأسرار، ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت نفسي أقف بالقرب من جسدي!! كان مشرط الطبيب حينها يحاول أن يشق طريقاً

للوصول إلى عضو لطالما ظل يستغيث، تدفقت الدماء.. ارتعبت.. أشحت بوجهي، وإذا بي أمام رجلين، يبدو أنهما كانا في انتظاري!

يمكنني الآن أن أصف الرجلين بمنتهى الدقة والتفصيل، رغم أنني لم أتأملهما طويلاً، فقد سارا حالما وقع عليهما بصري فتبعتهما دونما إرادة..

شابان فارعان لم يتجاوزا العشرين، منحهما الله جمالا لم أر في حياتي له مثيلا، يرتديان زياً وردي اللون وعلى الرغم من أن ملامحهما تشي بالطهر والبراءة، إلا أنني تهيبتهما لسبب أجهله تماما.

كنت أحث الخطى في إثرهما عبر الممرات الملتوية وعيناي تحدقان في سقوفها المصنوعة من مادة شفافة ترسل ضوءاً وردياً مبهراً، أضفى على المكان سحراً جعلني في حالة استرخاء ذهني، والحقيقة أني تبعتهما كالمنومة، لأن ذهني كان خاليا تماما من أية فكرة تفسد صفو تلك اللحظات التي قضيتها في استكشاف أماكن لم تطأها قدمي من قبل، وليتني بقيت على تلك الحال، فقبل أن نصل إلى آخر ممر سلكناه وفيما كنت مستغرقة في الصمت والتأمل، اجتاحتني أفكار سوداء جعلتني في حالة هلع ثم انهالت التساؤلات:

– ترى من يكونا هذان الرجلان.. إلى أين يقودانني.. وإلى أين ستفضي بنا هذه الطريق؟

ولست أدري كيف فتحت لي من ذلك المكان فجوة تطل على المستشفى الذي يرقد جسدي فيه، أدركت حينها حقيقة ما ألمَّ بي فعقد الخوف لساني، وانحبست في ظلمة نفسي للحظات، بعد أن رأيت الأطباء يحاولون عبثاً بث الروح في جسدي، فأعلن كبيرهم أنني غادرت الحياة..

إنه لمفزع حقاً أن يجد المرء نفسه موجودا بكل كيانه، في حين أنه يعد ميتا بين الأحياء، وما أصعب أن يصبح معزولا عن عالمه، منفيا عن أهله، تضنيه الوحشة وترهقه الغربة عن المكان..

حاولت التحدث إلى الرجلين، لكنني فشلت، كما فشلت كل محاولاتي في التعبير عما تكابده روحي، وظللت أصغي إلى الصرخات التي راحت تتخبط وتتحطم بجدران نفسي دون أن تنطق شفتي بكلمة..

لقد بدا لي أن الرجلين يعلمان بالخوف الذي يسكنني، وذلك من خلال نظراتهما التي تنم عن عطف وشفقة، لكنهما وعلى الرغم من ذلك لم ينبسا بحرف..

لقد مرت لحظات الألم تلك وكأنها دهر، استنفدت خلالها قدرتي على التحمل، فليس أصعب من تقبل فكرة الموت، ولأنه ما من وسيلة إلا الاستسلام للواقع الذي فرض علي، قررت أن أعد نفسي لهذا التحول الشامل الذي فاق كل التصورات، ورحت أحدق في الأشياء كالوليد الذي يحاول استكشاف عالمه الذي يراه للمرة الأولى.

استأنفنا المسير، وعند باب عملاق توقفنا.. أخذ كل رجل مكانه على أحد جانبي الباب ثم دفعا ضلفتيه في آن معاً، فانفتح الباب على قاعة كبيرة، طليت جدرانها باللون الوردي، يتوسط أحد تلك الجدران باب مغلق، وقفنا عنده في انتظار إذن بالدخول..

وفي تلك الأثناء لمحت نافذة تطل على حديقة غنَّاء، أسرعت نحو النافذة.. أرسلت بصري ليجوب أرجاء الحديقة الشاسعة، يا إلهي.. إنها تضج بالحياة.

أناس من مختلف الأجناس يلهون ويمرحون، وحالما أحسوا بوجودي راحوا يتطلعون إليَّ بود، ويرسلون لي ابتسامات وإيماءات تدل على الترحيب.

بين العشرات من الوجوه وقع بصري على وجه بدا لي أنني أعرفه.. أطلت النظر إليه.. تذكرت صاحبته أنها صديقة قديمة، ماتت منذ سنوات إثر إصابتها بمرض عضال..

شعرت بالغبطة وأنا أتصفح الوجوه كلها.. أرسلت بصري إلى أبعد نقطة في الحديقة التي لا تحدها حدود، إنه لشيئ جميل أن تلمح بصيص ضوء في ليل بهيم، فما بالك بهذا المهرجان الذي يضم هذا العدد الهائل من الأرواح..

لقد منحوني الراحة والطمأنينة خاصة أنني قد تصورت ولأكثر من مرة أن هذين الرجلين يقودانني إلى الجحيم..

لم أتحدث إلى أحد، لأنني لم أجد في نفسي الشجاعة خشية أن يخالف ذلك قوانين المكان، فآثرت الصمت على أن أعرف أشياء كان بإمكاني معرفتها لو أنني تحدثت إلى أحدهم..

سحرني ذلك العالم وسررت لأنني سوف أصبح جزءاً منه، تأملت حياتي التي مرت فوجدت أنها لم تكن إلا وهما عشت سنواته دون إدراك، تعلمت أشياء كثيرة وعرفت أشياء كثيرة لكنني لم أعرف أن الشعرة التي تفصل بين الحياة والموت هي ذاتها التي تنقلنا من الوهم إلى الحقيقة.. الحقيقة التي ترقص أمامي معلنة عن ميلاد جديد.

وفي اللحظة التي ذاب فيها الخوف بالمتعة والتأمل والرغبة في الاكتشاف، وصلتني إشارة جعلتني ألتفت إلى الرجلين، يا إلهي.. لقد نسيتهما..

توجهت إلى الباب المغلق، حيث كانا يقفان، عاودني الخوف فتساءلت:

– إلى أين يفضي هذا الباب؟

وقبل أن أسمح للأفكار أن تعبث بي تنبهت إلى أمر ما كان يحدث، فرحت أتابع الرجلين وأحاول أن أفسر كل نظرة أو إيماءة تصدر عنهما..

لم أتمكن من التوصل إلى شيئ في أول الأمر، لكن سرعان ما استفززت موهبتي في الاستشفاف ومعرفة بواطن الأمور.. ضاعفت من قدرتي على التركيز، فاستنتجت أن رحلتي إلى ذلك العالم قد انتهت، وآن لي العودة من حيث أتيت..

لم تكن مغادرتي لجسدي أمرا صعبا، لأنني خرجت منه كما تخرج الشعرة من العجين، لكن الصعوبة تكمن في العودة إلى الأرض ثم إلى الجسد..

قاسيت في رحلة العودة ما قاسيت، لكنني عدت في النهاية إلى جسدي الذي كان يرقد دون حراك، فاستراح كل من حولي لكنني لم أسترح..

لقد أحببت ذلك العالم وتمنيت الانتماء إليه، لكن رحلتي لم يقدر لها أن تكتمل فانتهت عند باب موصد.. لماذا انتهت رحلتي؟

لماذا لم يرد لي الولوج في ذلك العالم، رغم أنني اقتحمته وانتهكت جزءا من أسراره؟!

أنفقت وقتا في التفكير والتساؤل، إلا أنني سلمت في النهاية بأن هنالك حكمة وراء ذلك، حكمة لا يدركها من ذاب في الحياة ونسي ولو للحظة بأن القوى السماوية قادرة على أن تمنحنا فرصاً نعجز عن مجرد التفكير بها..

الآن.. تتملكني رغبة عارمة للعودة إلى ذلك العالم من جديد، لكي أعرف.. ماذا وراء الباب المغلق؟!

إلى الوراء دُر

بضعة أعوام مضت، تجر في أعقابها أحلامي، أمنياتي ومفردات شكلتها حياتي التي كانت تنعم يوما بالسلام.

بضع سنوات أبت ذاكرتي أن تحصيها، لأنني لم أكترث بها يوما ولم تعرني هي أيضا أيما اهتمام، رغم أنها شهدت جنوني وسراً دفنته بين طيات لساني خشية أن تكتشفه الجدران.

مر وقت طويل وأنا أكبل بالصمت لساني لكنني سأشرع اليوم أبواب ذاكرتي، فليس هنالك ما أخشاه، لأنني لا أنوي ترك دليل يدينني، كل ما في الأمر أني سئمت صمتي والخوف وأريد أن أبث لهذه الأوراق الصماء بعض أحزاني، وسوف أمزق أوراقي والكلمات وسأمحو الذكريات فور انتهائي، وأرجو ألا أضطر أيضا لقطع لساني، فالموت مازال يلوح مرحبا وفي أكثر من اتجاه.

ها أنذا أفتح الأبواب والنوافذ لأطلق سراح زمن عابث، غير المسارات.. أطفأ نور السماوات، وهبنا الموت بسخاء، زرع الحزن في كل بيت وشارع..

أكاد أشم رائحة البارود.. غبار المعارك، آه إنها الحرب، أجل هي الحرب، أسمع صيحات الجنود.. أزيز الطائرات.. دوي المدافع وصوت الأمر يعنفني:

– هيا.. لا تكن جبانا، اذهب واءتني بتلك الرأس، إنه الرفيق خالد.

"نعم هو الرفيق خالد صار محض رأس تتدحرج"

كحلم جميل مضت تلك الأيام المعجونة بعنفوان صباي، بغداد تشخص أمامي بصخبها وجنونها، بشوارعها المزدانة بالفرح، بشواطئها المكتظة وأشجارها السامقة المعطرة بمياه دجلة الخالد..

كنت مطمئنا أغزل أحلامي بألوان قوس قزح، اكتشف غريزتي البكر باشتياق جامح، أجوب الشوارع بحثا عن ملذات قد لا تتناسب مع حداثة سني، أغازل فتاة هنا، أتعقب أخرى هناك.. أشتهي نساء.. أعري أجسادا رخامية لا يمكنني الاقتراب منها إلا في حلم، تبهرني القطرات اللزجة فأزداد شبقا، أتوق لزرع لحمي في جسد امرأة، أية امرأة..

هكذا ظللت أشعل رغباتي ثم أطفؤها في الأحلام ليس إلا، حتى صحوت على كابوس متواتر مفزع بدد كل شيء وقادني إلي منعطف آخر لم يكن في الحسبان..

ذهبت بمفردي ترافقني دعوات أمي وأوراق حملتها بيد مرتعشة قاصدا دائرة التجنيد..

لم أكن يومها قد شفيت من مراهقتي بعد، تلك المراهقة التي تسببت في رسوبي لأعوام متتالية فصار لزاما علي الالتحاق بخدمة العلم في وقت لم يكن مثاليا بالنسبة لي ولا لمن هم سواي..

كنت كالذي فطم توا من ثدي الحياة، تسبق دموعي خطواتي وأنا ألهث راجلا صوب معسكر التدريب..

أتوغل في الطريق غير المعبد، أعب الهواء الملوث بالتراب لأستنشق رائحة الحرية قبل الولوج إلى عالم يجهلني كما أجهله.

بدت الأسوار أكثر شموخا وصار حجمي أقل ضآلة إزاءها، فلم يتبق سوى بضعة أقدام لأصل إلى الباب المنغلق على عوالمه السرية..

قال أبي وهو يسحبني من ذراعي الذي تشبث بعباءة أمي:

كف عن النواح كما الحريم، وحدها الجندية هي التي ستصنع منك رجلا كما صنعت معظم الرجال..

هل صنعت الجندية مني رجلا بالفعل؟ أم أنها قضت علي الطفل والرجل اللذين في داخلي يسكنان؟

هناك.. أقف برأس حليق أذعن للأوامر، أتلقى الدروس الأولى في النظام والانضباط والسلوك العسكري.

لم ترهقني الأوامر الصارمة بقدر ما أرهقتني النظرات والعبارات الساخرة التي صدرت من بعض الجنود الذين يتمتعون بقامات فارعة وبأجساد تفوح منها رائحة الرجولة، بينما أعاني من ضآلة جسدي ودقة ملامحي التي أعطت للبعض انطباعا ليس بصحيح..

استنفدت جميع أساليبي في ردع أولئك المتطاولين الذين استمرءوا إهانتي ولم يكفوا عن رجمي بالكلمات اللاذعة دون حياء، مما أثار حفيظة بعض الغيارى فتصدوا لهم ثم اتخذوني صديقا أما أنا فسعيت لتعميق تلك الصداقة، وأضفيت عليها طابع الحميمية، لكن القدر لم يمهلنا طويلا لأنه كان يقف لنا بالمرصاد.

خلف الأسلاك الشائكة وبعيدا عن العالم الرحب الغارق في المتع والملذات عرفت أن للحياة وجوها أخرى وأن للوجوه حياة أخرى غير التي نعرفها مهما حاولنا الاقتراب، لأنها لا تكشف عن حقيقة ذلك الوجه إلا لمن ترغب أن تمنحه ذلك الشرف الرفيع..

دعاني الضابط إلى مكتبه سرا، لم يكن ضابطا، بل كان يحمل رتبة عقيد، توجست؛ فهو متغطرس، صعب المراس، لا تقوى على النظر في عينيه المتوهجتين، ولا يمكنك في أية حال من الأحوال أن

تلمحه في حالة ارتياح، فهو متجهم دوما، ثائر بسبب أو دونما سبب..

استقبلني بحفاوة.. داعب رأسي الأمل، ربما يتكرم ويمنحني أجازة، اشتقت كثيرا لحضن أمي، لكن أية أجازة هذه ولم يمض على وجودي هنا إلا أسابيع، طوحت بالأمل بعيدا، فأعاده إلي ثانية، إذ راح يداعبني كما يداعب طفله المدلل الجميل، توسمت به خيرا، لكنه قتل الأمل هذه المرة واغتال براءة أعوامي الثمانية عشرة في آن..

دنا مني كوغد، يفضح رغبته شهيقه الداعر، أمرني بخلع ملابسي، انتفضت.. انتفخت عروقي.. كدت أضربه لكني جبنت.

ما الذي دعاه للتفكير بي على هذا النحو؟ هل فعلوها الأوغاد، أم أنه ظن بي الظنون كما ظنوا بي من قبل؟ اللعنة على ملامحي التي اسقطتني في هذا المستنقع العفن اللعين.

اقترب الوغد مرة أخرى، ألصق جسده بجسدي، نفرت فاغتاظ، لكنه ابتلع غضبه ثم راح يتوسل ويتسول عطفي ومرضاتي، كاد يبكي من شدة الرغبة والهياج، أحكم قبضته على جسدي النحيل، تضرعت.. أجهشت بالبكاء، لكن.. هل يعتق الذئب الجائع فريسته؟!

دائما كانت هنالك مفاجآت، فبعد مرور ثلاثة أشهر من التدريب المضني الذي لم يؤهلني رغم صعوبته لقتل جرذ اشتعلت الحرب، وفي غضون أيام قلائل وجدتني ورفاقي نحمل أمتعتنا خلف ظهورنا، نقطع المسافات.. نطوي الصحاري الشاسعة، لنقف بعد رحلة شاقة طويلة وسط الحمم في ساحات أعدت للموت.. أعدت للفناء.

في السواتر الخلفية، ثمة قلوب تذرف الدمع على شبابها الذي يقف على شفير الموت، وفي ساحات الوغى، الموت لا يبكي ضحاياه.

أحمل سلاحي بيد شلها الخوف.. أنضم إلى الرفاق.. تخذلني شجاعتي، لكن لا مناص من الانخراط في الكتيبة التي راحت تتوغل في ساحة القتال.

المكان مزروع بالجثث، الأرض ترتج بمئات القذائف، الطائرات تقذف حممها بلا هوادة، الحديد يتناثر.. ينصهر، فكيف هو حال الرجال المنسوجة أجسادهم من لحم ودم؟!

أبلى الجميع بلاءً حسنا، ولم يضنوا على الوطن بدمائهم، كانوا صناديد بالفعل، أما أنا فلا أتذكر شيئا على الإطلاق، يبدو أن ذاكرتي قد تعطلت حينها، لأنها لم تسجل لقطة واحدة من شدة

الرعب، لا أعرف كيف نجوت، رغم أني لا أجيد القتال وأجهل تماما فن الكر والفر الذي تقتضيه المعارك.

لم أكن على علم بأن مواليد أخي الذي سرح من الجيش منذ سنوات، قد استدعيت لخدمة الاحتياط إلا حينما لمحته في أحد المواقع، حاولت الوصول إليه لكن القصف حال دون ذلك..

قضيت ليلتها مسهدا أصغي إلى نشيج قلبي الذي أيقظ فيه أخي شوقا وحنينا أفلتا زمام صمودي.

الحرب تزداد ضراوة، يبدو أن كلا الطرفين يرغب في إحراز نصر يتباهى به أمام العالم على حساب ضحاياه، فيزداد عنادا ووحشية يوما بعد يوم.

سقط معظم الرفاق متدثرين بأمنيات لم تكتب لها النجاة، وسقطت أيضا..

حملوني على نقالة الجرحى إلى الصفوف الخلفية لتلقي العلاج.. لم تكن إصابتي خطيرة فلقد أخطأني الموت هذه المرة لكنه على موعد معي في جولة أخرى لا محالة.

لم تكن الصفوف الخلفية أقل ذعرا من ساحات القتال، فأنين الجرحى الذي لا ينقطع، ومأساة الذين فقدوا أطرافهم فصاروا أنصاف أجساد، والذين لم يحتملوا فظاعة الحرب فغادرتهم عقولهم،

وأولئك الذين شوهت النيران ملامحهم، وحالات أخرى تشعرني الآن بالغثيان..

كل ذلك جعلني أتصدى للموت وأتشبث بالحياة.

مرا صار طعم أيامنا، الحرب تعزف مارشا جنائزيا يبعث الأسى في أرواح الأحياء والأموات على حد سواء، وليس من أمل في النجاة من آتون هذه الحرب التي لم يتمكن مشعلوها من إخمادها فأكلت على مائدة أجسادنا وشربت بينما نتضور اشتياقا للسلام.

في زمن استثنائي أضاف إلى عمري عمرا آخر لم أعشه، وحكمة جعلتني أضع منطقا خاصا يتنافى مع منطق الحرب ومجريات الأحداث.

فالتضحية بالنفس من أجل قضية ما يفرضها الإيمان المطلق بتلك القضية، وأنا لست مجبرا على الإيمان بقضايا يفجرها الآخرون ثم يفرضوا علينا التضيحة من أجلها، ثم إنني مازلت أحمل في مؤخرتي وشم يجلب العار لرجولتي التي اغتصبت بالأمس، واليوم يريدونني أن أكون رجلا ليزجون به إلى الجحيم.

الحرب لعبة سياسية لها أهداف تخص أصحابها ولا تعنيني، لذا قررت أن أختار حرية الاختيار، لأنني وحدي من يملك قرار الرفض أو القبول بالموت من أجل نزاع لست طرفا فيه..

أعـرف أن قـراري هـذا يعـد جريمـة فـي زمـن الحـرب، جريمـة تخضـعني لمحاكمـة عسـكرية قـد تطيح برأسي الصـغير الـذي راودتـه فكرة العصيان وداعبه هوس الحرية، من أجل ذلك عقدت العزم على البحـث عـن وسـيلة تمكننـي مـن الوقـوف علـى حافـة النجـاة بـلا تضحيات ودون محاكمة عسكرية.

ساقوني إلى الخطوط الأمامية.. حسنا فعلوا، فلقد برءت من جراحي وصار بإمكاني تنفيذ خطتي بإحكام، لكن الصبر جميل، فلم يحن الوقت بعد.

الأمر لا يخلو من خطورة بالطبع، فالموت يقف لصق أنفاسي، لكني كنت حذرا وأمضيت معظم أوقاتي في الخنادق التي لم تشعرني هي الأخرى بالأمان، حتي حان الوقت.. وقت تنفيذ الخطة.

أمرني القائد بسحب جثة مقطوعة الرأس، امتثلت لأمره في وقـت احتـدمت فيـه المعـارك وصـار البشـر مجـرد ذرات متنـاثرة فـي الفضاء.

حاولت سحب الجثة لكنني لم أتمكن من زحزحتها، فتقهقرت كأرنـب مـذعور، وبخنـي القائـد ثـم أعـادني ثانيـة لآتيـه بـالرأس.. هـذه المرة كان القصف على أشده.. التقطت الرأس قبل أن ألتقط أنفاسي

التي تقطعت خوفا من الرأس ومن دوي القنابل التي أحالت المكان إلى خراب..

لم يتمكن القائد من النظر إلى الرأس الذي أفزعه السقوط من فوق قامته التي كانت تسعى منذ لحظات، أشاح الرجل بوجهه، ثم أمرني بوضعه فوق أكداس من الأشلاء فسقطت مغشيا علي.. لم أكن قد خططت لتلك الإغماءة لكنها جاءت لتخذم خطتي..

عندما أفقت من غيبوبتي تقمصت حالة شخص فقد عقله كنت قد رأيته في الصفوف الخلفية أِثناء إصابتي، وهكذا انتهى بي المطاف في مستشفى الأمراض العقلية ببغداد.

هنالك وقت يهرب فيه المرء من وعيه ليقتنص لحظات من السعادة قد لا يضاهيها عمر بأكمله، وأنا حين قررت التجرد من وعيي لم يخطر لي بأني سأمكث في منطقة اللاوعي تلك، طوال هذه المدة، دون إرادة مني ودون أن أحظى بلحظة سعادة..

ها قد بلغت غايتي.. أفلتُّ من الموت.. انتزعت حريتي من براثن الجلادين والجزارين والعسس، ناضلت من أجل الحفاظ على نبض قلبي، فيما بقي الرفاق هناك، ينهشهم الموت والأمل الذي لا أمل فيه..

أتأمل الرجال هنا.. أرنو إلى وجوههم البلهاء وعيونهم الضالة المتحجرة، كلنا حمقى، ظننا أن الحياة محض شهيق وحسب..

مازلت أقبع هنا، أطوي الأزمنة.. أرمم شروخ نفسي الخربة.. أنتظر شروق شمس لا تشرق.

انتهت حرب القادسية، وها هو الوطن يخوض حربا أخرى يدعونها عاصفة الصحراء، فهل يحتمل الوطن عاصفة أخرى؟!

كفت أمي عن زيارتي ولا أعرف لذلك سببا، عندما زارتني للمرة الأولى كانت ترتدي ملابس الحداد، لم أعرفها لوهلة، فقد أفقدها الحزن بهاء طلتها، كانت متفجعة لموت أبي واستشهاد أخي، أما حالتي فزادتها حزنا على حزن.

كنت أرغب في مواساتها لكنني لم أفعل، ولم أتحدث إليها قط، لا أعرف إن كانت قد سئمت صمتي كما سئمته أنا أم ماذا حل بها؟

كنت مضطرا للسكوت فمازال الموت يحيط بي مادامت فرق التفتيش تحوم هنا، يبدو أنهم بحاجة إلى حطب يغذي نيرانهم المشتعلة، فبين فترة وأخرى يظهرون ليصطحبوا معهم بعض المرضى الذين تثبت تقاريرهم الطبية أنهم أصحاء، حتى أن الرجل الذي تقمصت حالته اتهموه أيضا بالكذب والادعاء.

ليس أعظم من أن نمد جسورا للحياة حتى وإن كانت تلك الجسور قد شيدناها من وهم أو ادعاءات، نحن الذين لم تمد لنا الحياة جسورها فسقطنا أيضا في الوهم والادعاءات.

ها أنذا أسخر من الجميع، فإلى الآن لم يكتشف أحد سري، وأنا الوحيد الذي يعرف حقيقة أمري، لكن الذي يثير السخرية حقا، أن تقاريري الطبية تؤكد أني أعاني من صدمة عصبية حادة أفقدتني صوابي، وأن الأمل في شفائي ضعيف.. ضعيف جدا!

الكاتبة في سطور

الاسم : سولاف هلال

المهنة : كاتبة عراقية تقيم في القاهرة منذ عام "١٩٩٧"

درست الموسيقى "دراسات حرة" في مصر والعراق..

تكتب القصة القصيرة كهاوية منذ منتصف التسعينات..

تنجز الآن مجموعتها الثانية، وتضع أسس تجربتها الأولى في كتابة الرواية.

للاتصال: **solaf_helal@yahoo.com**

الفهرس